خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس

قلبٌ من زجاج

مكتبة 1295

ترجمة: أنور الشيخ

ملهمون للنشر والتوزيع
MOLHIMON

مكتبة | 1295

قلبٌ من زجاجٍ

◀ **الكتاب:** قلبٌ من زجاج
◀ **المؤلف:** خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس
◀ **التصنيف:** قصص
◀ **الناشر:** دار ملهمون للنشر والتوزيع
◀ **الطبعة الأولى:** مارس 2023
◀ **التصنيف العمري:** E

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.

◀ **الرقم الدولي المتسلسل للكتاب:** ISBN: 978-9948-37-684-2
◀ **إذن طباعة:** MC-10-01-8161296

7 8 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

◀ **الطباعة:** Masar Printing & Publishing, Dubai

darmolhimon
www.darmolhimon.com
0097165551184
SILICON OASIS, 20TH FLOOR (SIT TOWER) - OFFICE 2004, Dubai, UAE

خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس

مكتبة 1295

قلبٌ من زجاجٍ

ماهمون
MOCHIMON للنشر والتوزيع

فهرس

الحكاية الأولى-قداس الشمس 9
الحكاية الثانية-حوض الأسماك 27
الحكاية الثالثة-الحصان الذهبي..... 49
الحكاية الرابعة-الشجرة 73
قلبٌ من زجاجٍ..... 99
خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس 107

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان فيما كان ... كانت ثمة مزرعةٌ فسيحةٌ.
وكانت في الحديقة شجيرة مانجو صغيرةٌ.
أما خيول السباق؛ فقد ترعرعت في حقولٍ
مشمسة شديدة نضارة الخضرة.
في الأدغال، كانت الطيور قد تعلمتِ الغناءَ
بحريةٍ.
أما الرياح؛ فيا حبذا هيَ من رياح رقيقة! لقد
كانت تداعب حقولَ الذرة المترامِيَةَ الأطراف
إذ راحت تصطبغ شيئاً فشيئاً بلون النار.
في البحيرة، تولد الأسماك الذهبية لتنقل فيما
بعدُ إلى أحواض السمك في المدينة.
كان كل ما في المزرعة بديعاً.
بيْد أن البشر دمروا كل شيءٍ ...

الحكاية الأولى

قدّاس الشمس

مكتبة
t.me/soramnqraa

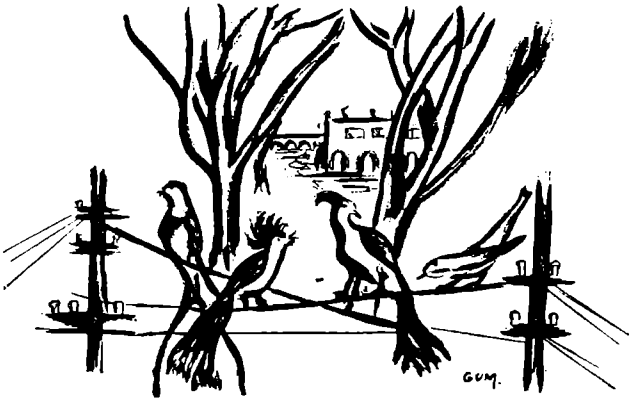

غمر الفجرُ وجهَ الأرض ...

آه! ... كم هو جميلٌ! ...

كَم هو جميلٌ! ...

تمتمت أمي إذ تخرجني وأخويّ الصغيرَين من منزلنا فقالت:

- تخيلوا! ... أينوي هؤلاء الكسالى النومَ اليومَ بطوله؟! ... هيا! ... عليهم أن يلعبوا؛ فالشمس قد بزغت ...

بدأت أستعيدُ حياتي - وقد أثقلتْ جفنَيّ وطأةُ النعاس - في تجويف شكلته نافذة منزلنا ذي الدعامة الكبيرة؛ والواقع في الطابق الثالث.

رشحتْ خيوطُ الشمسَ عبر شبكات العناكب الكثيفة المنتشرة في الغابة، لا لتغمر كل شيء بالضوء فحسب، بل لتخفف كذلك من وطأةَ البرد الذي كان الليل يزفره.

زعقتْ آخرُ الخفافيش هلعاً من الضوء، فحلّقت مسرعةً لتكوّن دوائرَ نورٍ كأنما هي قَطعٌ ناقصٌ من الضوء.

آه! ... كم كان ذا جميلاً! ...
كَم هو جميلٌ!...

ويزحف الصباح ببطء ليمدّ أصابعَ بيضاءَ فوق كل ورقة من أوراق الأشجار.

وأشعلت الشمسُ فتيلَ كل قطرة ندىً، فانبعثتْ وتَحركتْ في تلك اللحظة آلافُ العيونِ التي تنبض بالحياة.

وكان الندى ينساب وينساب؛ ينساب من أصغر الأوراق إلى أكبرها، فمن أكبرها إلى أصغرها، لينزلق منها مَتخللاً شجيرات الكرمة الموشّاة باللون الأزرق، ثم لينتهي به المطافُ متساقطاً فوق الجذور الكبيرة، متسللاً عبر التراب وقد نال منه النعاسُ كلّ منال.

ثم لتضوعَ تلك الرائحة الزكية المنبعثة من الأرض الرطبة المستريحة.

- كم كان ذا جميلاً!

آه، لو كان بإمكاني الغناء! ... إذن لشدوتُ ذاتَ يوم. لقد ضمنتْ لي أمي أني سأغني عندما أكبر، وزعمت كذلك أنّ على الطائر

الصغير أن يعاني عسرَ هضم جميل قبل ذلك، حتى ينضح فيما بعد بأثرٍ هذا الجمال في أدنى أنغام شدوه.

في ذلك الوقت، كنا لا نزال صغاراً، وكنا نستكشف الحياة من خلال التحليق الذي يزداد مدىً يوماً بعد يوم.

تثاءبتُ وفتحتُ منقاريَ وقد باتتْ عيناي اليقظتان مستديرتين براقتين.

كانت دونا راكيل - السُّمَّنةُ الأنيقةُ - تغني بلكنة فرنسية ... (وكان الجميع يعلقون على قصتها بقولهم: لقد فرّتْ من منزل عجوز فرنسية؛ وما أن طُرحتْ تلك المسألة حتى اقترب منا أحدُنا وغيّر دفة المحادثة معلقاً: «هناك طفلٌ بالجوار» ...)

وذلك أنّ دونا راكيل قد مرّتْ بالجوار تغني وتنادي السكان:

- لقد أزفتْ ساعةُ القداس الشمسي! ...
- لقد أزفتْ ساعةُ القداس الشمسي! ...

حوّلتُ وجهي قِبل الداخل واستفهمتُ:

- أمي، هل أنت ذاهبةٌ إلى هناك؟

- لا، يا بنيَّ. اذهب أنت وإخوانك الصغار، لا بدّ لي من إصلاح المنزل.

فردتُ جناحيَّ بكسل فرأيتُ أن صدريَ الصغيرَ كان منتفخاً، وقد اكتسب لوناً أزرقَ داكناً ذو بقع ذهبية.

وقفتُ على أطرافِ أصابع قدمي وثنيتُ ركبتيّ وارتميتُ في الفراغ. كم هذا رائعٌ! بل لقد بعث ذلك فيّ الرغبة في أن أُغلق عينيَّ فأرطمَ بجسدي أوراقَ الأشجار؛ لكنّ أمي لم تكن تحب ذلك الصنيع، حتى أنها نهرتنا ووبختنا لفعله آنفاً.

ومضيتُ أطير وأطير، وفوق رأسي، في الأعالي، تحوم طيورٌ مسناتٌ واثقاتٌ تصفّق بأجنُحها.

هرع الجميع للبحث عن مكانٍ أنسبَ في الكنيسة القديمة، كنيسة لم تكن أكثرَ من شجرة مصطكيٍّ معمّرة.

لعلّي ذات يوم أواكب كلّ تلك العجلة أنا أيضاً.

وصلتُ منهكاً تعباً لا أكاد أجترُّ أنفاسي، ومضيتُ أفتش عن مكانٍ لي وسطَ الحشود.

كانت دونا راكيل قدً اتخذت مكانها من الجوقة لتُعطى لها إشارة البدء بالنقر ثلاث مرات على فنن أجوفَ.

وهنالك غنتَ الطيورُ أجملَ ما في الحياة من أغنيات تكَريماً وإجلالاً للشمس التي تبدّت بكمالٍ واحمرّت بفخر. وأشرقتْ قمم التلال براقةً من بعيد، واكتستْ حقولُ الذرة البعيدةُ كساءً ذهبياً أيضاً، ومن أعلاها كانتَ الرياح تتسكع مهمهمةً بتراتيلَ رقيقة.

أطرقتُ ببصري أستطلعُ المشهدَ أسفلَ مني فألفيتُ إيراسيما يغني بصوت لطيف عذب. كان إيراسيما كلباً صغيراً يخشى كلَّ شيءٍ، ويعكف الآن على تعلم الغناء.

—

- إيراسيما فتاةٌ جبانةٌ! ...
- إيراسيما فتاةٌ جبانةٌ! ...
- إيراسيما فتاةٌ جبانةٌ! ...

لقد اعتدنا أن نطير في مجموعاتٍ فنهتفَ دائماً:

- إيراسيما فتاةٌ جبانةٌ! ...

واغرورقتْ عيناه البنيتان الصغيرتان بالدموع وتمتم قائلاً:

- كُفّوا عن ذلك.

كانت الحشود تحط على الأغصان وتعلّق:

- حَسناً، يا إيراسيما، ما خطبك؟ هلّا ذهبتَ معنا؛ فالجميع سيتشبثون بالأسلاك الكهربائية. إنها بهجةٌ كبيرةٌ. إنها أسلاكٌ متوازنةٌ لا يحدها حدٌّ أبداً. هناك ... هنا ...

- لا. لا. لن أذهب. أنا خائفٌ. لا ينبغي لكم أيضاً أن تذهبوا هناك أبداً. هم كذلك لا ينبغي لهم أن يغادروا الغابة مطلقاً.

- كلامٌ فارغٌ! ماذا حلّ بك؟

- نعم. وماذا لو وقعتم في شَرَك؟ سأل إيراسيما بعصبيةٍ. ثم ماذا لو كان القفص بانتظاركم؟

- القفص؟ سألتُه، مستغرباً. وما يكون؟ لم

يسبق لأمي قطُّ أن ذكرت شيئاً يسمى القفص.

- هذا لأنكم أطفال.

- تكلم إذن يا إيراسيما. حدثنا عن القفص.

ارتعد إيراسيما وقال بصوتٍ ضعيفٍ مرتجف:

- أما القفص؛ فشيءٌ مروعٌ؛ شيءٌ قبيحٌ أيّما قبح. هو غابةٌ من أشجار نحيلة؛ أشجار رُبطتْ فيمًا بينها بنبتة متسلقةٍ يدعونها بالأسلاك الحديدية، وله بابٌ نوضعُ خلفه، وينتهي بذا كل شيء؛ فلا يخرج منه أبداً من دخله.

- آه! لا وجودَ لما تصف. لعلك تتخيل. فلتتأرجح على الأسلاك.

فلوى بعصبية أطرافه وقال:

- عذراً، لكنيَ لن أذهب معكم.

قال مقالته تلك وهبّ هارباً تلقاءَ جوف الغابة التي كانت حينها دافئةً مضيافةً.

ضحكنا لصنيعه ساخرين:

- إيراسيما فتاةٌ جبانةٌ! ...

- إيراسيما فتاةٌ جبانةٌ! ...

ولأي مدىً يبلغه الصوتُ قلنا: إيراسيما شخصٌ يخاف.

وها أنا ذا الآن تدمع عيناي، وأرى القفص يلفّ جسدي الشاب. لقد كان إيراسيما محقاً: القفص شيءٌ مروعٌ!

لم تعد بي رغبةٌ في التحرك؛ بل لعلّي لا أدري ما إن كنتُ قد اعتدتُ القفزَ من مجثم طير لآخر. كل شيءٍ هنا حزينٌ جداً. حزينٌ. حزينٌ.

- أيها الفتى، أيّ بؤس هذا؟ - سأل سو بيدرو - ذو رابطة الدم القديمة - من القفص الآخر. هذا الحال سيمضي؛ لكنه كذلك في البداية دائماً. قريباً ستغني، وبالغناء تغدو الحياة جميلةً حتى داخل القفص.

- لا. لن أغنيَ أبداً. لن أغنيَ أبداً.

وتذكرتُ إيراسيما الذي لن يكابدَ ما أكابدُ. لا بدّ أن لإيراسيما الآن الكثيرَ الكثيرَ من الجراء، ولعلَّ الخوف سيسكنهُ على الدَّوام، لكنَه سيعيش بحريةٍ في الغابة.

– اسمع، يا بني، لن ينفعك الحزن في شيء؛ أردف بيدرو. مالكنا بالغُ اللطف. ألا ترى كيفَ يتحدث إلينا بهدوء شديد؟

– لا. ليس بطيبٍ ... إنهً من بني البشر ...

– وهل تعرف منً هو المالك؟

أما أنا؛ فلم أكن مهتماً بمعرفة مالكي، لكني رأيتُ في بيدرو صديقاً حميماً يستحق الاهتمام به والانتباه لقوله.

– اسم مالكنا هو كافالكانتي. لقد كان رجلاً يعيش في قفص كبير يسمى أوروبا، وقد صنع فيها العديد منً الأفلًام الجميلة؛ بيّد أن نفسَه التي بين جنبيه قد تاقت لغابات البرازيل كثيراً، ولذا... فقد فرّ وطار إلى هنا.

وعادت بي أفكاري. (الآن فهمتُ)؛ لقد هربتْ دونا راكيل، وهرب كافالكانتي؛ فعسايَ أهربُ ذات يوم أيضاً.

– اسمعني ياً بني. ما زلتَ شاباً ووسيماً، فاعلمْ أنّ كل هذا سيمر. ها نحن نتنعم بالشمس، ولنا أن نشعر بالريح، والشمس

والريح هنا هما ذات الشمس والريح في كل مكان ... واهتمّ بشيء ما؛ فالأشياء البشرية رائعةٌ. أتريد أن أريك مثالاً؟ ها أنا الآن مهتمٌ ببطولة العالم لكرة القدم، فأستمع لها في الراديو. ستُقام المباراة الأخيرة يوم الأحد، وأنا على ثقة من أن بيليه سيطيح بالأرجنتين.

ولمّا رآني سو بيدرو أعود لحزني، هز رأسه وقفز من مجثم إلى آخر. لطالما رأيته يعلق بحسرة: «آه! الشّباب! ... الشباب! ...»

وبقيتُ لساعات وساعات منتصباً على مجثمي. وعندما حَل آخر النهار ضاق بي صدري كمداً كما لو عُقدَ بحبل، وعادت بي أفكاري للمزرعة. حين ينحسر ضوء الشمس عن الحقول، وتتسابق المهور الصغيرة؛ تخرج إلى سطح البركة الكبيرة السمكةُ الذهبيةُ الصغيرةُ. كانت هناك سمَكةٌ صغيرةٌ سعيدةٌ تُدعى كلوفيس، وكانت لطيفةً للغاية؛ وكانت كلوفيس تنفخ لنا خدها وترينا من وجهها بعض التعابير والإشارات... وحقول الذرة

الصفراء ورائحة الأرض الرطبة... والليل الذي لا بد أنه بات عذباً وقد نشر على صفيح البركة نجومهُ... يا إلهي! لم أعد أريد العيش بعد الآن.

كي لا أعيش بعد الآن، لن آكل. كي لا أعيش بعد الآن، لن أشرب. كي لا أعيش بعد الآن؛ لن أتعلم الغناء.

في أول يومين، كان الجوع يؤلمني قليلاً، أما الظمأ فكان يُلهِب حلقي... لكني لم أكن أرغب في العيش بَعد هذا.

كرر السيد بيدرو: «لا تفعل بنفسك هذا يا بنيّ. كلْ من تلك البذور ... واشرب من ذلك الماء...

فلم أُجب. لكن كيف أشرب من هذا الماء؟ إنه ماءٌ. ماء الجدول الذي كنا نرِده في أسراب متقافزين من غصن إلى غصَن على رؤوسٍ الأصابع ثم ننطلق، وذًا كان يخيفً السيد باتشيكو، سمكةَ السلور العجوز ذاك، والذي كان يأخذ قيلولة تحت الشمس. كان

سو باتشيكو يستيقظ خائفاً، ويكلمنا بألفاظ قاسية... لكنه بعد ذلك يغفر لنا ويسمح لنا بالشرب بحرية.

كيف سمحتُ لنفسي بأن أفقدَ كل ذلك؟ كيف أمكنني ذلك؟ ... وعاد المشهد بسرعة ...

... كنتُ أقفز في الغابة بسعادةً إلى أن واجهت شيئاً رائعاً. سلكٌ كهربائيٌ في أعماق الغابة؟ نعم، سلكٌ كهربائيٌ. سلكٌ لم يكتشفه أحدٌ من قبلُ. لقد كنتُ أولَ من عثر عليه، فارتقيتُ أعلى قمة فرع من الفروع، فقفزت فوق السلك، وفجأةً تحرّك السلك فشعرت أن قدمي اليمنى عالقةٌ، فرحتُ أرفرف كالمجنون عاجزاً عن منع نفسي من الانقلاب.

وسرعان ما تهافت الفتية ليقبضوا على عنقي بقوة.

- اصطدنا طائراً أزرق! ... اصطدنا طائراً ازرقَ! ...

لم يكن بوسعي أن أصرخ أو أستنجد بأحدٍ؛ فتمّ نقلي إلى قفصٍ (بِتُّ أعرفُه الآن)،

ووُضعتُ وسطَ مجموعة من الطيور الخائفة الأخرى؛ وفي اليوم التالي وضعوا القفص في شاحنة، فتشبثتُ بالقضبان وناديت بيأسٍ: أمي! ... أمي! ...

لم يبلغ بكائي مسامعَ أحد. لا؛ لم يبلغ سوى المزرعة، بحقول ذرتها المترعة بأشعة الشمس، ومسطّحها المائي الشفافَ، وكذا غابتنا العذبة التي تركتُها خلفي، وضاعتْ في المسافات فاختلطت صورتها بالغبار ...

كان جناحايَ الصغيران مشبَعين بالغبار وعصير الشراب السميك. لم أَعُد ذلك الطائرَ الجميلَ مذ أخذوني إلى السوق ... ثم ابتاعني السيد كافالكانتي.

أُخذتُ إلى منزل ريفيّ فأُودعتُ قفصاً هو ذاتُ القفص الذي ما زلتُ فيه. غضبتُ، ولطمتُ بصدري القضبانَ، وكدمتُ منقاري على عوارضه السميكة، ولكنّ ذلك دون جدوى. لقد كنتُ ألهث فوق المجثم.

«لا فائدة من ذلك يا ولدي!». كانت تلك

المرةَ الأولى التي أسمع فيها صوت السيد.

لقد فقدتُ كل شيء. أنا لا أشرب، ولا آكل ولن أستطيع الغناء أبداً.

وجاء الليل ثقيلاً، وجذب سدولَ الظلال قبلَ أعيننا، وطالت ساعاتُ الحزن، وشعرتُ قبَل الفجر بحين طويل أن قواي تخذلني، فسقطتُ على أرضيةَ القفصِ، وباتتْ أنفاسي تضعف.

مزق الصباحُ السماءَ دفعةً واحدةً تقريباً، ولاحتْ أصواتُ خطىً من داخل المنزل. لقد استيقظ كافالكانتي وجاء كعادته يتفقد أقفاصنا.

- رباهُ! آه! يا إلهي! لقد هرب الطائر الأزرق...

أنزل القفصَ فرآني ملقىً أسفلَه؛ فاصطبغ صوتُه بسخط مفاجئ.

- ويحكنَّ مَن خادمات! أفلا ترين أنكن لم تغيرن ماءَه، ولم تزوّدنهً ببذور الطيور؟ ...

ولكنّ عينيه سرعان ما اتسعتا حينَ وجد دُرج البذور ممتلئاً، وكذا وعاء الماء.

وبات صوته رقيقاً عذباً حينما مدَّ لي يدَه وأخرجني.

- ماذا حل بك يا حيواني الأليف؟ لقد كنت لطيفاً جداً، رقيقاً جداً، وسعيداً جداً؟ هذا مؤلمٌ، أليس كذلك؟

وداعبَ برفق ريشَ رأسي.

أردتُ أن أخبِره، لكنه كان إنساناً لن يفقه قولي. أردتُ أن أقول له:

- أنا أموت... أموت كمداً ... لا، لن يفهم؛ وحتى لو فعل؛ فإنه لن يفتح أبواب الأقفاص الأخرى حتى يتمكن الآخرون من التحليق في الغابة.

وظل يهمس لي بأشياءَ حلوة.

وهنالك توتّر بيدرو وشرعَ في الغناء فلم يفهمه سوايَ.

- اهربْ يا بني. ها هي ذي يده مفتوحة. اهرب. اقفز إلى غصن الكينا ذاك؛ ومن هناك تنفسْ وابتعدْ ... ابتعدْ ... ابتعدْ.

لكن قوايَ خانتني إلا من أن أقول له:

- الآن ... لا أستطيع ... فلأجنحتي وزن الأوراق الجافة ... أنا

وتحولتُ ببصري إلى بستان الكينا، فكانت الشمس تتدفق بين الأغصان، وانسدل جفنا عينيّ بهدوء، ومن بعيد المسافاتِ عاد لي صوتُ دونا راكيل وهو ينادي:

- واشعباه! لقد حان وقت القداس الشمسي...

... قداس ... الشمس ...

الحكاية الثانية

مكتبة
t.me/soramnqraa

حوض الأسماك

لا تفعلْ أشياءَ كهذه. انتظر دورك. أيّةُ صُحبة هذه؟ بما أنّ هنالك طابوراً، فعليك الالتزامَ به!

«لكن ألا ترى أني سئمت هنا؟». قال كلوفيس ساخطاً بعضَ الشيء.

- نحن جميعاً سئمون، ولستَ خيراً منا!

توقفَ كلوفيس، وسبح نحو أحد جدران الحوض الكبير الزجاجية فانعكستْ على الزجاج المقابل صورةُ وجهه الأحمر، وظهره ذهبيّ الخطوط، وذيله الضخم العاجيّ الشفّاف، والذي كان يتلوى بشكلٍ متعرّجٍ كالمروحة.

- كم هذا جميلٌ! أوليس أجملَ وأفضلَ من سواه؟ لماذا لا تستطيع هذه الأسماك رؤية نفسها! سمكةٌ بيضاءُ، شاحبةٌ، هزيلةٌ، قبيحةٌ.

تجهّمَ وواصلَ السباحة، فاستدارَ واستدار.

كنتُ في غضون ذلك أفكرُ. كيف يدمّر الناسُ كل شيءٍ. لكنّ ذلك كان جيداً. لقد كان

ذا درساً له؛ درساً لتلك العادة التي تتمثل في شكواكَ من كل شيء، والتفكير في أن حوض المزرعة الكبير كان شَيئاً فظيعاً. يا مَن وُلدتَ للمغامرة والسفر إلى أماكنَ رائعة، ومياه جديدة وغريبة؛ ماذا سيحدث لمستقبلكَ الآن؟ متى يحينُ دورك لمغادرة هذا الحوض الزجاجي القذر، والتخلص من رفقة هذه الأسماك القبيحة سيئة الأخلاق؟

لا بدّ أنّ الأسماك كالبشر بطبيعة الحال. على الأقل فيما يتعلق بالفوارق الاجتماعية. أفلا نعلم أن خيرَ الناس حُظوةً وتقديراً هم خيرُهم منبتاً؟ ففي هذه الأثناء؛ تتسكع في الضواحي أسماكٌ بلا أصل، ولا أرض ولا حدودَ؛ أسماكٌ لا عزم لها ولا رباطةَ جأش... وأخرى بلا روح أو ذوق سليم تفرض عبورَها على سمكة راقيَة تصطفّ في الطابور تنتظر الدور. اللعنة!

وذا ليس أسوأَ ما في الأمر؛ فالأسوأ هو الرائحةُ المنبعثةُ من بيوت الطيور؛ وقن

الدجاج؛ وكذا الضجيجُ المتواصلُ لأنواع من ببغاوات تشكو بصوت عال طيلة اليومً. يا لها من بيوت طيور مبتذلة! إنّ فيها كلّ شيء: دجاجٌ وببغاواتٌ وسلاحفً وطواويسَ وديوكٌ روميةٌ وعصافيرُ.

ربّاه! أية كآبة هذه! هناك؛ قبل المزرعة؛ لا بل حتى قبل البركة؛ كان يمكن للمرء على الأقل أن يرى شروقَ الشمس، وورودَ الخيول للشرب، وله كذلك أن يعرف أن الأسماك الأخرى كانت تنتمي لذات مستواه الاجتماعي. تذكر كلمات أستاذته السيدة كويتريا:

- كفاك أحلاماً أيها الفتى. تخلصْ من هاجسك وتفكيرك السرمدي في السفر، واختبئ إذا ما رأيتَ من يحملون شباكهم بحثاً عنك؛ فلا شيءَ يضاهي حريتك التي بين يديك. إن لك ها هنا صَحباً وواداً، وهذا هو الأهم.

- على رسلك سيدتي كويتريا؛ إنّ أنا إلا شابٌّ يريدَ السفر واكتشافَ عوالمَ جديدةٍ.

ألا ترين كم أنا جميلٌ؟ تأمّلي في أمري ملياً؛ فأنا لم أولد لأعيش في قاع بركة مبتذلة.

وافقتْه بلطف وقالت: حسناً، يا فتى. كفى بالزمان معلّماً؛ واعلمْ ألّا ما يعدل خبرةَ الشيوخ؛ ثم اذكرْ دائماً شيئاً مهماً: البشر... البشر مخلوقاتٌ بلا قلب تُفسد كل شيء.

بدا الأمر كما لو كان مُعجزةً حدثتْ على نحو غير متوقع إذ دقت ساعة الكنيسة المجاورة على رأس الساعة الثالثة؛ وكعادة بيت الطيور، طاف طائفُ النعاس الفاتر بعيون جميع الكائنات. حتى مع دخول الفضوليين من الرجال والنساء والأطفال إلى الحقول، ورغم شهقات الدهشة؛ غير أنّ سنةً من النوم أخذتْ جميعَ الحيوانات. لقد كان ذلك أيضاً مبعثَ ارتياح. أما أنا فقد بذلتُ جهداً جهيداً كي لا أنام أنذاك، فرُبّ لحظات يغلبني فيها النوم فيجعلني أرقُ الليل القاسي أدرك مدى طول الساعات، وطول ليال تغور نجومها.

في ذلك الوقت من ساعة الأصيل، كابدتُ

لأفتح عينيَّ، وعكفتُ على أن أنظر لأشياءَ كنتُ قد عرفتُها من خلال العديد من التحليلات، أشياءَ منها فقر البيئة.

ولأن عينيّ مفتوحتان، فقد رأيتُ تلك السيدةَ الطويلةَ الأنيقةَ ذاتَ اليدين الطويلتين النحيلتين اللتين حجب القفازان انسجامَ أصابعهما. كانت تدنو من حوض السمك.

تحولتْ سبابتها إلى حوض السمك، بينما تبعها صاحب المنزل بابتسامةٍ موشّاةٍ بأسنانٍ ذهبية.

- تلّك الحمراءُ ...

من باب اللياقة، كان من المفترض بها أن تختار سمكةً من الأسماك النائمة. لكن ماذا! لقد وقع اختيارُها عليّ بشكل عفويّ في النهاية. كنتُ من بالغ خوفي أخشَى أن تتَّراجع عن أخذي، فرُحتُ أثيرُ بذيلي موجات لطيفةً، وأُبدي من جمالي ما استطعتُ، دون أن أُحْدِثَ أدنى ضوضاءَ كيلا أوقظَ الآخرين.

- لا سيدتي. إنه آخر واحدٍ لدينا. ستصلنا

في غضون أيام قليلة أسماكٌ أخرى من هذا الصنف.

- وتلك الأخرياتُ؟ القبيحاتُ؟

- هذه، يا سيدتي، أسماكٌ لطيور؛ أسماكٌ تعيش في آبار أو أنهار أو برك... إنها أسماكٌ فظةٌ متسكعةٌ، لن تنجوَ أو تعيشَ في حوض سمك.

- إذنْ؛ سآخذ هذا!

وما أن دُسّت الشبكةُ داخل الحوض الزجاجي حتى حبستُ أنفاسي وقفزتُ بحماس داخل فتحات خيوطها؛ فاستيقظ الآخرونَ؛ وما لبث ذهولهم يزول حتى بدؤوا في مخاطبتي بعبارات بذيئة نابية يستحيل ذكرها مجدداً.

هاجمَ حلقيَ اختناقٌ مؤقتٌ فاتسعتْ عيناي حينما شعرتُ أني بتٌّ خارج الماء؛ وهنا خانتني قوايَ في أن أردّ على غضب تلك الفئة السكانية التافهة. لعلّ الاحتقار والصمت مني يكونَا أفضل ردّ لي عليهم.

خفّ همي وسُرّي عني عندما وُضعت

مجدداً في منزل زجاجيّ كرويّ صغير.

كبّل إحساسٌ بالسلام تحركاتيَ الأولى، لكني رحتُ تدريجياً أجوبُ ما أسماه أصحابُ المنزل حوضَ أسماك، وغمرني استشعارُ المياه النظيفة العذبة الخالية من الروائح، والاحتكاك بأسماك أخرى، بإحساس بسلام وسعادة لم أعهدهما مذ خرجتُ منَ البركة.

تم اقتيادي في سيارة ضخمة (علمتُ لاحقاً أنّ هذا المنزلَ المتنقّلَ الصغيرَ الحلوَ ذا الرائحة الغريبة يسمى سيارة) وسرنا فسرنا فاستدرنا فتوقفنا فواصلنا المسير؛ فانتابني من ذا كلّه ضربٌ من دُوار سمّرني في ذات الزاوية، فكنتُ منبهراً بالساقين العريضتين المتصالبتين لمالكتي الجديدة.

أخذني السائق إلى المنزل، وتم تسليمي مع حوض السمك الخاص بي لخادمة سوداءَ ابتسمتْ حتى تبدّتْ لي أسنانُها ناصعةُ البياض.

دخلت المالكةُ الغرفةَ وأوصتْ خادمتها بالتالي:

- من الضروري تغييرُ الماء في هذا الحوض كل يوم.

- فَي أيّ مكانٍ تريد سيدتي أن أضع لها الحوض؟

نظرتُ حولها فرأت البيانو الأسودَ اللامعَ العاري تماماً.

- ضعيه فوق البيانو؛ ثم احرصي على وضع قطعة قماش تحته كيلا يتلف الأثاث.

وبذا تم وضعي فوق البيانو.

تنفستُ الصعداءَ الآن. نعم. لقد بات لي بيتٌ صغيرٌ خاصٌ بي؛ فابتسمتُ حبوراً، وهممتُ بإصلاح تلك النباتات الصغيرة التي رأيتُ أنها في غير محلها... ورحتُ أفكر في آلاف الأشياء في ذات الوقت. يكفيني مجردُ شعوري بالبعد عن البركة الكبيرة، والأسماك القذرة، وضجيج الطيور، ورائحة الدجاج الكريهة...

كان كل شيء يبدو لي جديداً طيلة يومين؛ فتراني أتفحص المرايا الكبيرةَ في غرفة

المعيشة، واللوحات ذاتَ الإطارات المذهبة، والكتبَ ذاتَ الأغلفةَ المقواة والمركونة فوق الرفوف، كما كانت القيثارةُ الصامتةُ الغامضةُ مصدرَ سحر بالنسبة لي.

دأبت الخادمةُ السوداءُ كل صباح على القدوم لتبديلَ المياه المستعملة بمياه عذبةً نظيفة.

لقد مرّ بناظريّ الكثيرُ من تجارب الحياة الجديدة؛ فمرّتْ بي ساعاتٌ سعيدةٌ عديدةٌ إلى أن كاد ينفجر لها قلبيَ المفلس؛ فقد اكتشفتُ للتو أني كنت وحيداً تماماً...

—

كان الأمر كما لو أن دقات الساعة تصوّب نحو صدري: وحدةٌ... فوحدةٌ... فوحدةٌ...

كان جسدي يستدير ليلاً ونهاراً؛ فإذا ما كان هناك ضوءٌ، دُرتُ فوق ظلي، وإذا ما توارى الضوءُ سكن كل شيء.

آه! لو أنّ سمكةً صغيرةً واحدةً تأتي من المزرعة فأتحدث معها. الصحبةُ... هي ما فكرتُ فيه في أيامي الأولى.

كان كبريائي يتحطم حتى لو جاءت واحدةٌ من تلك الأسماك المشاغبة ... فقد كانت الأيامُ تمضي ...

لا بدّ أن يكون هذا هو ما أشارت إليه السيدة كويتريا بجملتها الشهيرة حين أصرتْ على تلقيننا درساً في الفلسفة:

- ليس للعزلة شبيهٌ سوى الشيخوخة.

شيءٌ ما نضج بداخلي حين راحت الأشياءُ تكتسب في نظري معنىً حياتياً أقوى، وكانت الوحدة أسوأ ما في الأمر كله...

كان ذا عالمَ السفر الذي كنت أتخيله. نعم؛ لقد كان ذا واقعَ أحلامي البائس؛ فها أنا ذا انتقلتُ من سعة الحدود إلى ضيق القيود.

طاف بي طائفُ الحنين للبركَة؛ بل لقد زاد في ذاكرتي بهاءُ طيور البلشون الأبيض التي كانت تظهر عند الأصيل، وشيئاً فشيئاً؛ راحتْ تستيقظ بين جوانحي سلسلةٌ من ذكريات أول لحظة اكتشفتُ فيها أني حيٌّ، وأن كل شَيءٍ راح يكتسب معنىً ما ببطءٍ.

استنزفت اللحظاتُ القديمةُ مني وقتاً أطولَ في تذكّرهاَ، لكنها بُعثت للحياة مجدداً كما لو كانت تحدث حقيقةً كلما تذكرتُها.

كانت عيناي البريئتان تتساءلان وتجوبان المكانَ بفضول؛ فعند الأصيل، اعتدتُ منَ والدتي أن تصحبَني نحو سطح بركة المزرعة.

- هيا بنا يا صغيري، فقريباً سيحل الليل. أفلن نذهب للنوم؟

- ما الليلُ يا أماه؟

- الليل يا بنيّ، هو المياهُ السوداءُ التي تسمو هناك في الأعلى.

- وماذا يوجد في الأعلى؟

- في الأعلى السماءُ.

- وما هي السماء؟

أشارت أمي إلى السماء، وعلقتْ بصبر:

- لا ينبغي للطفل أن يسأل كثيراً هكذا. السماء هي كل ما تراه هناك. لنذهب الآنَ.

- لا يا أمي. لحظةً فقط. ما تلك الأَشياءُ التي في السماء؟ تلك الأشياء الصغيرة ..

تلك الأشياءُ التي تتبدى لنا كلما جنّ الليل؟

- تلك الأجسام اللامعةُ هي النجوم.

ولمّا رأتْ أمي أني لم أفهم ما قالت أمعنتْ في مداعبتي وملاطفتي.

- صغيري... يسميها البشر نجوماً؛ والشعراءُ دموعاً... لكنها في الواقع بقعٌ، تماماً كالتي تغطي جسمك هذا. إنّ النجومَ نمشٌ على جلد الليل... هل فهمتَ؟

أحبطني مقالها هذا قليلاً.

- لم أعِ كل شيء يا أمي. لم أستوعبْ سوى القليل ممَا قلت؛ ولَذا سأفكر في الأمر لاحقاً.

- هو ذا؛ فهلمّ بنا الآن؟

- ليكنْ ذلك.

وبينما نحن نسبحُ ببطء متجاورَين نحو عريننا، غامرتُ بسؤال آخَرَ.

- أماهُ، أفكلُّ الرجال يفعلون ذاتَ الشيء؟

- ماذا تقصد أيها الفرخُ؟

- نعم، أفكلُّ الرجال يعيشون لإحضار خيولٍ تستحمُّ في البركة؟

فضحكتْ أمي.

- لا يهم. إنهم يفعلون الكثير من الأشياء الأخرى؛ فحياة الإنسان معقدةٌ، وهناك أناسٌ آخرون غيرُ مَن تراهم يحممون خيولَهم.

وعاودني الحزن الشديد، ورأيت نفسي وحيداً داخل الحوض. وحيداً. حيداً...

تنهدتُ وعدتُ مجدداً لذكريات البركة.

«نعم أمي. أنا لم أفهم لمَ هذه المياه قاسيةٌ جداً!»؛ وحكّ طرف أنفَه بذلك الشيء القاسي.

- بنيّ، ذا ليس ماءً؛ بل هو أرضٌ البشر. هي ذي الأرضُ، ولطالما كانت الأرض صلبةً. إنها موجودةٌ لتشكل حدوداً؛ حدوداً تحجز مياهنا...

هذا وتواردت العديدُ من الأشياء الأخرى لذاكرتي، كالريح التي كانت تكدر صفو مياه البركة فتثير موجاً من فوقه موجٌ؛ فكان شعوري بالحنين إلى الوطن كتلك الأمواج...

—

في الليلة الخامسة، وبينما لم أكن أتخبط في الماء وكأنّي بي أموت بؤساً؛ إذ رأيتُ شيئاً ساطعاً كنجم قديم بدأ يقترب مني.

رباهُ! ما كان ذا نجماً؛ بل حباحبُ تمتطي عنكبوتاً. هناك! يا لها من عنكبوت جميلة! كانت ترتدي نظارةً عند طرف أنفها؛ ولها عدة شعرات رماديّة برزتْ من تحت قبعتها؛ وكانت تتوكأ على عصا.

ألقتْ عليّ تحيةَ المساء واسترسلتْ في التعريف بنفسها:

- «اسمي روزا بوافينتورا. كان عليَّ أن أزورك منذ أيام؛ بيْد أنّ للعمر أحكاماً كما تعلم.»؛ وابتسمتْ معتذرةً.

- «لا بأس عليك، سيدة روزا. أيّة سعادةٍ عظيمة حبَوتنيها!

- هلَّ لي أن أتعرف بجنابكم؟

- حباً وكرامةً. أنا كلوفيس أوجينيو دي فاسكونسيلوس وسوزا؛ خادمكِ السميع، وقلبكِ المطيع...

- شكراً. كم أنت مؤدبٌ! ويا له من اسم جميل! أنت ذو دماء زرقاءَ، ألستَ كذلك؟ منَ نسلٍ باوليستا البالغ أربعمئة عام؟

- دمٌ أزرقُ. برتغاليٌّ منذ ثمانمائةَ عام.

- أأنت من البحر؟

- لا. لقد ولدتُ في قصر لتربية الأسماك. في رأيي؛ البحرُ.. كيف أقولُها؟ البحرُ مبتذلٌ نوعاً ما ... وكبير جداً؛ ففيه اختلاطٌ كثيرٌ، ألا توافقينني في ذلك سيدة روزا؟

- هذا ما أسمعه. ثم إني شخصياً، لا أُضمرُ الكثير من التعاطف حيالَ أسماك البحر، وذلك لسبب بسيط ... هو أنّ رائحتها كريهةٌ للغاية ... وكيف هي حياتك في القصر ذي البركة؟

- هي جميلةٌ؛ سيدة روزا؛ بل رائعةٌ!

وتلوتُ على مسامعها كل شعر يتعلق بنا.

فتحدثتُ لها عن حقولَ الشمس الذهبية والذرة الصفراء، والغابة المترعة بطيور متعددة الألوان، وما تصدح به من أغنياتٍ،

كما حدثتُها عن الخيول التي تولد صغيرةً ثم تترعرع فتجري وتكبر في المراعي الخضراء، وعن كل ما يتعلق بالطبيعة إذ يستحمُّ كلُّ ما في المزرعة تحت أشعة الشمس الحارقة المتجهمة.

تحدثتُ عن الليل الذي جاء ليغسل النجوم في مياهنا. تحدثت عن البلشون الأبيض ذي الريش العاجيّ الذي يتحول إلى اللون الوردي عند الأصيل.

لم أنسَ كذلك الحصانَ الذهبيَّ الذي سيصبح لاحقًا بطلاً عظيماً؛ وعدّدتُ حتى خوفيَ الأول الذي أصابني به هذا الحصان الصغير عندما وجدتُه يشرب بجواري ... ثم تحدثتُ عن زمالتنا المتينة والحميمة. كان اسمه لولا، وهو ابن السيدة جيما، الفرس الأصيلة.

ولطرد ظلال الوحدة الَتي شعرتُ بها طوال أيام وليال عدة، ظللت أَعدُّ لها وأَعدُّ.

كَما ذكَرتُ ً الليلَ وأحجياته حين كانت حورياتُ الماء تخرج للرقصَ عند السطح

محاطةً بهالات شفافة، وذكرتُ حين كانت البركة تُسوَّر بقلادة من الحباحب البريةَ فتتَجمع حيواناتُ الغابة لتعزفَ الناي على ضفتنا، وعن نجم الصباح الأخير حين يبزغ ليغسل وجهه في مياهنا قبل أن يتثاءب ويجري بحثاً عن الليلة المنصرمة فينام وينام.

لقد تحدثتُ كثيراً إلى أن بلغنا من الثقة مبلغاً؛ فكانت الساعةُ في غرفة المعيشة تعزف لحن الساعة الثالثة ...

- يا إلهي! صرخت السيدة روزا. كم تأخرنا. ماذا سيقول زوجي؟ سألفي درتانيان غاضباً، ولن يكون لي أن أقول إني ذهبت إلى السينما أصلاً، فأوانها قد فات.مكتبة سُر مَن قرأ

ثم علقتْ إذ تذكرتْ شيئاً:

- درتانيان هو عنكبوتٌ تزوجتُه قبل سبعمئة وثمانين ساعةً ...

- عمتَ مساءً يا كلوفيس، سأعود غداً ...

- تَعالي باكراً، فليس لكِ حتى تخيلِ مدى سعادتي بمقابلتك.

في اليوم التالي عادت مع الحباحب التي كانت بمثابة خادمة للسيدة درتانيان، وكان معهما جندبٌ سمينٌ فرويتُ لهم كل ما مر بي في اليوم السابق؛ فتحمسوا لقولي، وعادوا بعدها في وقت أبكرَ بصحبة اثنين من أصدقاء آخرين جددٍ، هما بعوضةٌ حولاءُ تدعى غيلييرم، ووزغةٌ مرقطة جداً أصرّت أن تُدعى البارونة بورونجابا.

فرويتُ لهمُ القصة مرةً أخرى؛ لكنهم إذ عادوا في اليوم التالي فحدثتُهم بقصصي مجدداً، بدؤوا في التثاؤب وراحوا يُنهون جُملي قبلي؛ فانتابني حزنٌ وخوفٌ شديدان.

وهنا سأل الجندب البدين بضجر:

- أليس في جعبتك سوى ذي القصَص المبتلة؟

وبهذا السؤال، انسحبوا جميعاً، وتمتم النصفُ منهم ملاً.

أما الليلةُ التاليةُ فكانت فارغةً بغير زائرين، ولذا عاد الحزنُ للانضمام لصمتي مجدداً.

* * *

كانت الحالُ تسير بي من سيء لأسوأ. زد علىَ ذلك أن الخادمةَ لم تعد تغيِّر ماء حوضي ...

كنت على ثقة من أنها لم تنظفْ بيتيَ الزجاجيّ الصغيرَ منذ ثلاثة أيام ... أما في البركة، فكنتُ أعلم أن حالها يَنبض بهجةً وحياةً! لكني لم أكن أريد حتى تذكُّرَ نباتاتِ السيدة كويتريا.

—

مرَّ يومان فلاحتْ لي سيدةُ المنزل في غرفة المعيشَة، وتفحصتِ الحوضَ، وقالتْ للخادمة:

- هل تغيّرين ماءَ الحوض؟

- كلّ يوم، سيدتي.

شخصتُ برأسي خارجَ الماء وصرختُ:

- إنها كاذبةٌ ، سيدتي. هي لم تنظف منزلي منذ خمسة أيام، ولقد انتابني في الأيام الخمسة الماضية شعورٌ بأنّ ذي المياهَ الثقيلةَ القديمةَ تخنقني ببطء.

بيْـد أن مبلـغَ يأسـيَ الـذي بلغتُـه لـم يطـرق مسـامعَ أحـدٍ.

—

في صباح اليوم التالي، كان كلوفيس مقلوباً رأساً على عقب.

أما الخادمةً التي جاءتْ لنفض الغبار عن البيانو، فقد ضربت الحوضَ بمنفضة الريش لإخافة السمكة الصَغيرة التي لم تتحرك؛ فاعترت الخادمةَ لحظةُ ذهولٍ، فذهبتْ تُحدثُ سيدتهاَ بالخطب.

- سيدتي... لقد ماتت السمكة في الحوض!

والتفتت السيدة من فوَق سريرها.

- «الهاَتف»، قالت السيدةُ وهي تتثاءبُ. «اتصلي ببيت الطيوَر واطلبي سمكةً أخرى مثلها.»

- وما أصنعُ بذي السمكة في رأيك سيدتي؟

فتثاءبت تثاؤباً أشدّ من الأول، ثم تمتمتْ وهي نائمةٌ تقريباً:

- أَعطِها للقط!

الحكاية الثالثة

الحصان الذهبي

مكتبة
t.me/soramnqraa

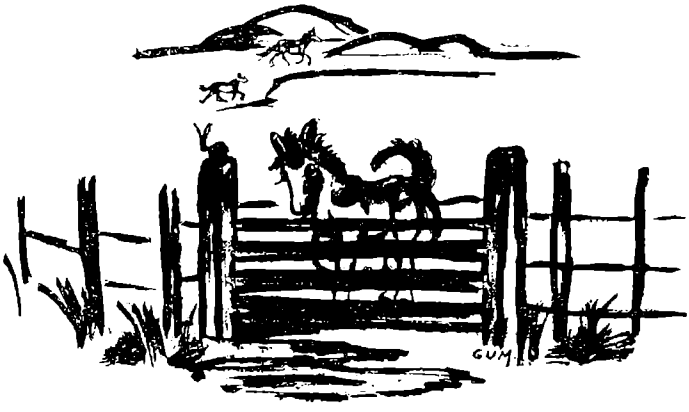

أنا على قيد الحياة! ... لقد وُلدتُ للتو! ...

بدأ الأمر بأن اندفع هواءُ الريف والحياة في رئتيّ فجعلني أشهقُ، وراح وبري الذي لا يزال رطباً يجفُّ بفعل حرارة الشمس. كم كان العشب مخضرّاً قويّ الرائحة!

رنتْ أمي نحوي بسرور، فتحولتْ آلامُ عينيها الرطبتين إلى سعادة؛ فقالت لي:

- هيا... حاول الآن... واحدٌ، اثنان، ثلاثةٌ...

وحاولتُ القفزَ فشعرتُ بجسديَ الضعيف يرتفع إلى الفضاء، ولكنّ قوائمي لم تكن تعينني.

فحاولتُ مرةً أخرى، إلا أنّ جسدي هوى فوق العشب مرةً أخرى؛ ثم استيقظتْ فيّ عزيمةٌ فولاذيةٌ فقفزتُ؛ وقبل المرة السابعة، سقط جسدي شبه سقوطٍ على قوائمي.

فابتهجتْ أمي.

- هو ذا يا رجلي الصغير.

ثم شعرتُ بالجوع فنظرت نحو أمي في حرجٍ.

– هل لي ... هل لي ... أن أرضعَ؟

فابتسمتْ أمي وقال:

– بالطبع يا حبيبي، لك ذلك.

لم أنتظر طلباً ثانياً؛ بل بدأتُ في امتصاص الحليب الساخن بجشع، ورحتُ من وقت لآخر أنظر إليها بعينين بنيتَّين كبيرتين صافيتين؛ إذ كان يساورني شعورٌ بأني أسرف في ذلك؛ لكنّ أمي – وإن أسرفتُ – لن تقول لي شيئاً، لأنها تعرف أن الحياة بالنسبة إلي قد بدأتْ للتوّ فقط.

عندما فرغتُ من الرضاعة، رحتُ أنظر للعالم الموجود خارج أحشاء أمي.

– انظر عن كثب يا بنيّ. انظر كم هي الحياة جميلةٌ، وكذاً الشمسُ والضوءُ؛ واحذر أن تنسى مشاهدةَ سعة الأرض التي ستعدو فيها وتتسلى.

صحيحٌ أنّ خطواتي الأولى كانت خطوات غيرَ بارعة، لكني بدأتُ أشعر بسعادةٍ كبيرةٍ أني وُلدتُ.

توافدتْ عند الأصيل أفراسٌ أخرى قادمةً من تلقاء المزرعة تزور أمي.

- رباه! كم هو جميلٌ سيدة جيما!

- ويا لها من عيون واسعة!

- يا له من جبين ينم عن ذكاء!

قالت فرسُ الأبنوس: حسناً، ما أحببتُه فيه هو لونه الذهبي ذا. أنه كشعاع الشمس ...

فقالت أمي:

- بالتأكيد؛ ثم إني لا أتصنعُ زيفَ الحياء أو بسيطَ الخيلاء كغيري ممن درج على ذي الطباع اليومَ؛ لكن أكثر ما يعجبني فيه هو التناسب في قوائمه. لا جدالَ أن ابني سيغدو بطلاً عظيماً.

—

في بداية الأمر، علمتني أمي الجري؛ فبدأنا به جرياً بطيئاً جنباً إلى جنب. ثم خامرتني ثقةٌ أكبرُ فتوقفتُ وانتصبتُ أمامها وصرختُ:

- لقد هزمتُ أمي! ... أمي لا تستطيع مجاراتي!

فابتسمتْ وهزتْ رأسها بسعادة وقالت:

- أيها الأحمق! أنا لم أهزمكَ لأني لا أريد ذلك ... نعم؛ ذات يوم ستصبح بطلاً عظيماً فلا يمكن لأمك أو لسوَّاها أن ينافسك آنذاك.

ولعقتْ لي عُرفيَ الذهبيّ، وأضافتْ بهدوءٍ ورفق:

- نَعم؛ ستكون مصدر فخري؛ وريثما تصبح بطلاً، عش حياتك يا بنيّ!

ووكزتَني بطريقةٍ وديةٍ كانت أقرب للقُبلة منها للوكزة.

عشْ! ... عشْ! ... عشْ! ... نعم، هو ذا ما كنتُ أريد، وهَذا ما يُفتَرض بي فعلُه.

وشَخَصتُ بخيشميّ فتجرّعتُ ما استطعتُ من الهواء الدافئ الذي سخنتْه الشمسُ، وزفرتُ بشدة.

كانت الحقولُ صغيرةً بالنسبة إلى مضماري. نافستَني الرياح، وأثارت الجموحَ في عروقي، فتمردَ ذيليَ الذهبيُّ طولاً وعرضاً...

كان كل شيءٍ جديداً بالنسبة إلي: من الزحف

على العشب، إلى مداعبة العشب بجسدي، ففركِ ظهري في الرمال للقيام بشقلباتٍ مستمرة.

كنتُ أذهبُ للبركة الكبيرة، فأتحدّثُ إلى السمكة الذهبية الصغيرة، وأغمسُ في الماء البارد حوافري، أو أشربُ منه بضعَ رشفات، أو أزيد على ذلك فأرُشّه على جسدي المتعرّق.

في أوقات أخرى، كنتُ أستلقي على العشب أتأملُ العالَم الصغير؛ فأرى النملَ الأحمرَ ينسلُّ بين ثنايا الأرض فيُدير عند اللقاء حواراتٍ عصبيةً صغيرةً.

أو أشاهدُ سماء الأصيل الزرقاءَ، فأتتبعُ ببصري حركةَ السحب في السَماء دون أن أفهم.

قلت لوالدتي ذات مرة:

- انظري إلى السماءِ يا أماه!

- لماذا يا بنيّ؟

- لا لشيء سوى التأمل.

فرفعتْ عينيها نحو السماء، فصرختُ في فرحٍ وقلتُ لها:

- أماه. كم هذا جميلٌ! عيناك ملآنتانِ بالغيوم. لماذا؟

- لأنّ الأمور تجري على هذا النحو بطبيعة الحال. أيّ شخص، حتى أنت، إذا ما نظر إلى السماء، انعكستْ في عينيه صورةُ الغيوم.

تلك كانت الحياةَ. أن أعيش! ... لم يكن هنالك ألمٌ أَو جوعٌ أو عطشٌ؛ وكانت الأوقاتُ النادرةُ التي يهطل فيها المطر رائعةً جداً! فترى الجميعَ يركضون تحت المطر، أو يَثبتون في أماكنهم فيغرقون في العشب، أو ينكمشون تحت الأشجار خوفاً من الرعد.

في صباح أحد الأيام، جاءت بعض السيدات الجميلات لزيارة المزرعة ورؤية تربية الخيول بشكل خاص؛ وعندما رأينني صرخن بدهشة:

- يا له من مهرٍ جميلٍ! ... يا له من لونٍ جميلٍ!

ارتعَدتُ وهززتُ ذيلي بامتنان.

- مضحكٌ! يا له من حيوانٍ صغيرٍ وذكيٍّ! يُقال إنها تفهم ما يُقال.

ما أغبى بني البشر؛ لأن لنا أن نفهم لغتهم كلها، بينما لا يمكنهم فهم لغتنا! ...

لكنّ ما أدهشني كان سيدةً على رأسها زهورٌ.

وواصلن الحديث:

- ذا مبتغانا. إن له نِسباً رائعةً وصحةً حديديةً.

- لو سُئلتُ عن أجمل مهرٍ رأيته في حياتي، لقلتُ ذا هو!

فجريتُ نحو أمي.

- أماه، إنَّ رأسَ المرأة مزهرٌ!

ضحكتْ أمي.

- لا يتحدثُ مثلك كما يتحدثُ عن امرأةٍ يا بني، فأنت هنا تتحدث عن سيدة أنثى.

- حسناً يا أمي، السيدةُ مزهَرةُ الرأس. كيف لهذا أن يكون ممكناً؟ هي ليستْ شجرةً، ولا نبتةً متسلقةً ...

- إنها قبعةٌ. هم يقطفون الأزهار ويضعونها في القبعة. يا لولدي من أحمقٍ!

وانطلقتُ عبر المراعي فلم أقفل عائداً لاهثاً حتى بردت الشمسُ تبشر بالليل. كانت أمي حينها تتحدَث إلى أفراس أخرى، والكلُّ عاكفون على قطعة من صحيفة.

قاطعتُ اجتماعهنَّ بالتوسل:

- أماه، من فضلك تعالَي معي.

أشاحتْ أمي ببصرها بعيداً عن الصحيفة واستفهمتْ عن بغيتي.

- آه! أمي، لقد وجدتُ شيئاً ما، وليكنْ ذا سراً بيننا نحن الاثنين.

- ويحك يا بنيّ، هلّا تركتَ هذا للغد. نحن نقوم بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة فلا تقاطعنا.

- لم أعد أحبك بعد الآن، كما لن أكون بعد الآن لطيفاً.

واجتاحني ألمٌ أوشكتُ لفرطه أن أبكي؛ إذ كانت تلك أولَ مرة ترفض لي فيها أمي أمراً.

أما هي، فقد تركتْ كل شيء وجاءتْ معي لما رأتْ من حزني. يبدو أنها وقعت على حقيقة أول منكَرٍ.

كما سمعتُ كذلك تعليق إيديت على الآخرين، وهي فرسٌ بيضاءُ جميلةٌ من أصل إنجليزيّ (وهي التي أصابت الجميعَ بعدوى الكلماتً المتقاطعة، ولم تتوقف عن التعهد لوالدتها والسيدات الأخريات بأنها ستعلمهن النفخ)؛ وذلك حين قالت:

- إن جيما لسيئةٌ جداً؛ فهي تلبي كل ما يريده هذا الصبي فترضيه، وهذه ليست طريقةً مناسبةً لتربية الأبناء... على الأقل في إنجلترا...

لكن بونسيانا؛ وهي فرسٌ مرقطةٌ، علّقت...

لم أسمع البقية، ولم أكن مهتماً بمعرفة معنى ذلك كله.

ركضتُ إلى جانب أمي بأسرع ما استطعتُ.

ولم نتوقف حتى بلغنا شجرةً استوائيةً معمّرةً.

- انظري يا أمي.

- لا أعرف ماذا تقصدُ.

- لا أستطيع الوصول إليه يا أمي.

- ما هو؟ تلك الزهور الصفراء؟

- نعم أمي. هلّا قطفتها لي.
- ولكن؛ لأيّ شيء تصنَع ذلك يا بني؟
- أريد أن أضعها على رأسي.

ضحكتْ أمي.

- لكنّ الفحلَ لا يضع مثل هذه الأشياء على رأسه يا بنيّ لأنه سيغدو قبيحاً.

- لا عليك يا أماه. سأبدو بها وسيماً جداً، ولا حاجة في أن يعرف بالأمر أحدٌ.

قطفتْ أمي الزهورَ الصفراء بأسنانها، وشرعتْ بغرزها في عرفي؛ وبينما هي كذلك، إذ افتتحتْ حديثاً لم يبدُ لي أنه سينتهي قبل بضعة أيام، وقالتْ:

- عندمًا ستربح ذات يوم جائزةً كبرى، سيقلدونك زهوراً على هيئةً حدوةَ حصان كبيرة. حينها فقط ستدرك معنى الجمالً الحقيقيّ.

حتى تلك اللحظة، لم أكن أفكر إلا في العيش؛ واستشعار نعومة الشمس على جسدي، وإثارة الرمال الساخنة بحافري،

واستنشاق الريح بخياشيم الجموح؛ وكلٌ ذلك في حرية مطلقة... الآن فقط أدركتُ أني - كحيّ - قد كبرتُ؛ وإذ كبرتُ؛ فقد منحتني الحياةُ أُولى ملامح ما ينبغي عليّ حيالها.

عند أصيل ذلك اليوم، مشيتُ ببطء واستلقيت بحزن في ظل بستان الكينا الكبير؛ حتى أني لم أنتبهْ لطيور الأصيل وهي تغني لتغفو، ولا للريح إذ حركتْ أوراق الكينا التي راحتْ تكتسب اللون الأسود تدريجياً.

لم أكن أفكر إلا في تلك المحادثة!

- بنيّ، علينا التحدث بجدية.

نظرتُ نحو أمي بذهول.

- فلنمض إلى مكانٍ مهجور جداً يكون فيه كلُ بوحي لَك سراً بينَ قلبي وقلبك.

شيءٌ غريبٌ تجلّى لي في الهدوء العذب الذي تحدثتْ به أمي معي؛ فأوجستُ أنّ في قولها شيئاً جاداً جداً ومصيرياً.

عَدَونا جنباً إلى جنب بجوار وادٍ مزق العشبَ الأخضرَ بلونٍ أحمرَ ينذرُ بالسوء.

ثم توقفنا فنظرتْ إليّ أمي مرةً أخرى بقسوة واستسلام؛ فأطرقتُ ببصري مكدّراً.

- كنتُ قد أخبَرتكَ بأننا بحاجةٍ للتحدث بجدية.

فأومأتُ برأسي موافقاً قولَها دون أن أرفع بصري نحوها.

- حسناً يا بنيَّ. لقد بتّ فحلاً الآن ولم تعد طفلاً، وهذا يعني أن الوقت قد مرّ وأننا سوف «نفترق».

تلقيتُ بذا الكلام طعنةً في صدري؛ فلم أكد أستطيع حتى التلعثمَ:

- لكن لماذا يا أمي؟ قريباً جداً أيضاً!

- إني أعلم أنه لَيصعب عليك سماعُ ذلك؛ لكنَّ ذلكَ مؤلمٌ بالنسبة إليَّ أيضاً؛ بيْد أنك بتّ فحلاً، وتحتاج إلى معرفة ماهية حياتنا. لَا. لا تقاطعني الآن. سوف ننفصل.

بادئ ذي بدء، حان الوقت لأعاود واجبي في الأمومة، وبالتالي إنجاب المزيد من إخوتك الصغار وإحضارهم إلى هذا العالم ... إنه

واجبنا ... أنت أيضاً ستبدأ مثلي «واجباتك الأولى». في غضون أيام قليلة، سيأتون لاصطحابك للتدريب فيمتطون صهوتك...

- يستحيل هذا يا أمي. لن أفعلها أبداً. لا أريد. أنا وسيمٌ جداً؛ ولن أكون مطيةً لإنسان. وحدهما الشمسُ التي تؤمن أن وبري الذهبيّ أعجوبةٌ، وكذا الريح التي تداعبني، هما من له حق امتطائي.

ضحكتْ أمي.

- بلى يا ولدي. سيفعلون ذلك وسيتسكعون؛ فالبشر يفعلون ما يريدون ... وسوف تسمح لهم. أنا أثق بك. ثم إنك لن تكونَ موضع فخري قبل حين لا بدّ آت. أنت فحلٌ يا بنيّ، ولا يمكنني السماح لأحدٍ أبنائي، أفضل خيل في السلالة؛ الحصان الذهبيّ، أن ينفر مَن حدّيثي.

- لكنَي يا أميَ لستُ فحلاً بعد...

- كيف ذلك وأنت أطول مني؟ ...

- آه! إذن؟ حسناً؛ سأمشي وقوائمي مطويةٌ لأبدو أقصر.

ضحكتْ أمي.

- افعل ذلك، وسيعطيك الأطباء البيطريون حقنةً... دعنا نعود الآن، لأنّ الليل يجوب الحقول. وللحديث بقيةٌ.

هذا ما حدث، وذا هو منظور الحياة الذي فُتح أمام عينيّ.

حتى أني اتخذتُ قراراً بأنْ بدأتُ المشي وقوائمي مثنيةٌ للهروب من امتطاء كان يهددني؛ لكن سذاجتي القدسية جعلتنيَ في دائرة الضوء بدلاً من طمسي وتغييبي.

- ما الذي حلّ بالمُهر؟

وقبل أن أتمكن من الهروب، وجدتُ نفسي في شَرَك كثير من الناس الذين اقتادوني إلى إسطبل. بَقيتُ ممدداً؛ والكوميديا حين تبدأ لا تكاد تنتهي، فقد جاس في داخلي أملٌ غامضٌ: لعلّ القومَ لا يكتشفون أمري فيتراجعون عنِ امتطاء صهوتي.

قال الطبيب البيطري معلقاً: إن هذا الحصان يضع شريطاً لاصقاً.

أدرتُ عينيّ بلا حول ولا قوة أتفحصُ ببطءٍ وجوهَ أولئك الرجال رجًلاً رجلاً.

فحصوا مفاصلي وحوافري وقوائمي.

تمتم الطبيب البيطري مرةً أخرى:

- شريطٌ! لا يوجد شيءٌ... ولكني أملكُ علاجاً وهو...

وفتح حقيبةً أخرج منها إبرة حقنة بدتْ لي كبيرةً ومدببةً ... لم أستطع ردع خوفي، ولم أملك زمام أمري؛ فلم أسمح للآخرين بعلاجي، ولذا وثبتُ منتصباً وركضتُ كمجنون فتسوّرتُ البوابةَ ونظرتُ مطلقاً صهيلًا قبلَ المراعي الواسعة التي تغمرها الشمس.

من ورائي، انفجر الرجال القساة ضحكاً لا انقطاع له.

ثم انتهى كل شيء. لقد جاء الرجال وأعادوني؛ فتركتُهم يستبدلون الشمس والريح برجال صغار يدربونني.

باتتْ حياتيً تتلخص في سلسلة من الحميات الغذائية، وكان مضماري يُقاس بشكلٍ مستمرٍ،

وذلك يومياً ووفقاً للساعة الجدارية. لم تكن عيونُ المدرب تغفل عن شيء حتى لو كان خطوةً خاطئةً واحدةً؛ وها أنا ذا أعيش الآن نظيفاً دائماً في خليج من الخلجان، وأتلقى العناية من رأسي حتىً أخامص قوائمي؛ هذا فضلاً عن سرمديّ الثناء على «عروضي».

عند أصيل كل يوم، كانت تَحمل لي خيولٌ سائبةٌ أخرىَ رسائلَ من أمي تقول لي فيها من بعيد إنَّها قد شاهدتْ تدريباتي بفخر.

وبدلاً من «الحصان الذهبي»، أطلقوا عليّ اسم «زحل».

إنّ حياة الحصان الأصيل ليست مثيرةً للاهتمام حين يمرُّ بهذه المرحلة الميكانيكية. كان الزمن يتقدم كالعضلات التي تطورتْ في قوائمي أو صدري. لقد مرّ كل شيء بسرعة.

لا أتذكر كم من الوقت كرستُ فيَّ تدريبيً إلى أن جاء يومٌ ... تم فيه نقلي إلى المدينة فنلتُ في بدايتي جائزةً كانت نجاحاً حقاً؛ ثم كثفوا تدريبي (وأنا الآن أشعرُ ببعض الفخر أنّ

اسمي بات موضعَ الإطراء ومقصدَ الهتاف)، وتنافستُ على جوائزَ أخرى أكبرَ.

لم يخامرني أدنى شك في أني كنتُ أشعرُ بسعادة غامرة لسماع اسمي: زحل! زحل! زحل! في الميكروفونات وأصوات المشجعين المهووسين بسباقات الخيول.

وذاتَ ظهيرة أحد من آحاد الربيع، فزتُ بالجائزة الكبرى، فهتف الحشدُ لي وسّرني من ذلك ما سرّني؛ وأنا ألهثُ منتصراً. كان الناس هناك في هذيان. التقط مالكي بفخر صوراً بجانبي، وعلى رقبتي القوية وضعواً زهوراً على هيئة حدوة حصان ضخمة. في اليوم التالي، ظهرتْ صورتي على كل جزء من العشب؛ كما لم يعد للصحف حديثٌ سواي.

تذكرتُ في غمرة تلك اللحظة كلمات أمي؛ فالآنَ؛ وبكل فخر؛ يجهزونني للفوز بالجائزة الكبرى عندما سأتنافسُ في الأرجنتين مع خيول ذات تصنيف عالميّ.

كنتُ أعلم أني سأفوز.. بل كنتُ متأكداً

من فوزي... فتدريباتي الآن قاسيةٌ مكثفةٌ، وقد شجعني صديقي السائسُ بكل عبارات التشجيع... ولكن...

ما ينبغي أن يكونَ يكونُ.

وذاتَ صباح، تعثرتْ قدمي خلال أحدَ سباقات العدْوَ في حفرة من حفر المضمار فحلَّ بَي ألمٌ شديدٌ ألقًى بجسدي بعيداً، ورافقتْ سقوطي ذاك حالةٌ قاسيةٌ.

حملوني إلى مربطٍ، فسكنني في ذات الوقت حزنٌ وألمٌ.

كل ما كنتُ أتوقعه حدث كقدر محتوم.

لم يفُتني أن أرى الطبيب البيطرَي وهو يهز برأسه.

- لن تتمكن من الجري بعد الآن... إنه كسرٌ...

أغمضتُ عينيَّ حتى لا أبكي.

عبرتُ مراعي المزرعة بقائمة عرجاءَ، وغدا كل شيء قبيحاً بالنسبة إلي فلَم يبقَ لي من سحر الصّبا باق، وعلمتُ أن الأمر سيّان؛ وأنّ عينيّ كانتَا تتغيرَان.

كيف لي أن أعيش دون هتافات الحشود، ولمسة الفارس، وأكاليل النصر؟

بحثتُ عن والدتي فعلمتُ أنها بِيعتْ لمزرعةٍ في بارانا، فزاد ذا من وحدتي.

ثم أهدتني صاحبةُ المنزل لحفيدتها سيليا الطفلة؛ فجعلتني أجرّ «عربتها»؛ وهنا لم أعد أُكنّى بَزحل ولا بالحصان الذهبي؛ فعُقِرَ ظهري وازداد وزنّي، وراحت تفاصيلي تتلاشى وعمري يمضي. باختصارٍ، لقد غدوتُ حصاناً عادياً بلا خصائص.

ومرّت سنواتٌ عدةٌ باتتْ سيليا بعدها فتيّةً، فازداد شعوري بالحرمان من سلالتي القديمة ومن ذكرياتي في ذات الوقت.

بعد «العربة»، كان قدري أن أدور حول مطاحن المزرعة، وأن أبقى طوال اليوم، طوال اليوم، طوال اليوم، أدورُ مربوطاً، وأهرول مربوطاً، وأجري مربوطاً.

عندما كانوا يحلّون وثاقي، يكون الظلام قد حل تقريباً، فتصلني أواخرُ أشعة الشمس

لتجد جسدي، الذي كان ذهبياً فيما مضى، جسداً قاسياً بندوب كبيرة وجروح لم تلتئم. بل حتى الشمسُ لمً تعد تحبني.ً

كانت أمسياتي حزينةً على الرغم من تزيّن السماء بالغيوم والنجوم والقمر والكواكب ... وها أنا ذا لم أعد أريد ذكر زحل.

لقد فات الأوان وراحتْ أسناني تتهاوى، واتخذتْ آلام المفاصل مني مسكناً؛ فرحتُ أسقط أثناء العمل... فأيقنتُ ألا شيءَ يُقارَن بالوحدة كالشيخوخة.

أطلقوا سراحي في حقل صغير قبيح حارّ غير ذي ريح؛ فكان الذبّاب يحوم فَوقي، والنعَاس المستمر يثقل جفنَيّ فأغلقُ عينيّ الوقت كلَّه؛ حتى بتُّ لا أقوى على الوقوف تقريباً.

إلى أن جاءني ذاتَ صباح شيخٌ أسودُ بحبل جرّني به ببطء. كنا فيً الشيخوخة سواءً، فليس منا نحنً الاثنين من يقدر أن يحثّ الخطى.

صحيحٌ أني كنت أعرف ما ينتظرني؛ لكني لم أنظر خلفي إذ لم تكن بي رغبةٌ في أن أُلقيَ على المزرعة النظرةَ الأخيرة أو أن أتذكر أي شيء.

ودخلنا الغابةَ؛ وبعيداً، هناك حيث لم أعد أستطيع العودة (وكأني كنت أرغب حقاً في العودة!...)، تركني الشيخُ الحزين.

أصبحتُ ضعيفاً ضعفاً لا يخوّلني حتى قضمَ العشب، أو البحثَ عن عشب آكله.

لكنّ الغابة هناك كانت خضراءَ موحشةً مهجورةً. كنت أَعلَمُ أن ساعاتي باتتْ معدودةً، وأن النسور ستحوم فوق رأسي في حلَق قريباً... لم أعد راغباً في سماع موسيقى الحياة بعد الآن ... أغمضت عينيَّ المتعبتين.

- سأغنّي لك بنفسي فلا تبتئسْ. سأغني لك أجمل الأغنياتِ. لن أتركك وحيداً ولن أؤذيك ...

نظرتُ إلى غصن شجرة فرأيتُ إيراسيما الثالثةَ والعشرين تغنّي لي. كانت لا تزال على

خوفها، وفي جيدها عقدٌ صغيرٌ جميلٌ... غنتْ لنومي ساَعات وساَعاتٍ؛ لنومي الطويلِ الذي بات أدنى ليَّ مني...

—

مات الحصان في صباح اليوم التالي، وراحت النسورُ القمّاماتُ تدنو.

- اذهبي بعيداً! ... اذهبي بعيداً! لا تقتربي ... بالله لا تفعلي! توسّلتْ إيراسيما لاويةً جناحيهاَ.

لكن نسراً معمَّراً جثم على جثمان الحيوان وهمس لإيراسيما:

- لا تكوني مملةً! ... هذه سنةُ الحياة ... أفلا ننفذ مهمتنا أيضاً؟

طارتْ إيراسيما بعيداً باكيةً نحو جوف الغابة التي كانت حينها دافئةً مضيافةً كعهدها

الحكاية الرابعة

الشجرة

مكتبة
t.me/soramnqraa

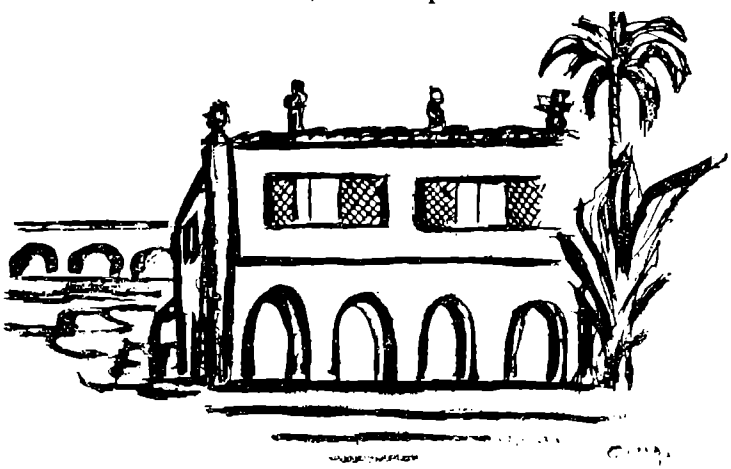

كانت السيدة كاندوكا شجرةً تعيش في الفناء الخَلفي للمزرعة.

كانتْ شابةً مفعمةً بالأحلام، سعيدةً تنضح بالحنان، وكانت ترتدي دائماً تاجها الأخضر اللامع كي يصلها نورُ الشمس وضياءُ أبناء القمر الفضيّ.

—

ما أن صاح الديك مصفقاً بجناحيه، شامخاً بصدره المهيب جهةَ الباب القديم، حتى تمطّتْ كاندوكا نافضةً أعلى أوراقها برفق.

رائعٌ! كم هو حارٌ هذا الصَباح!

سيكون عما قريب جلبةٌ تعمّ كل مكان؛ فيمرّ المستوطنون بالمجارف والمعاول متجهّين إلى الحقل، ويجتاح الحلّابون الحظائرَ، وتُجلَب الدلاء فتضرب الأرضَ مصدرةً ذلك الصوتَ المعدنيّ المألوفَ للمسامع.

كانت الخيول تصهل حين أطلق الطائر من بعيد أولَ إشَارة تحذيرٍ بخصوص القداس الشمسي.

عمّا قريب يتفتّح الصباحُ كزهرة مخملية، فتعلو كل تلكَ الأصوات إلى أقاصيَ حدودها، وتنفجر الغابة غناءً، وتتمايل الرياح كعادتها متخللةً حقولَ الذرة الذهبية.

- يا إلهي! فكرتْ كاندوكا. كم الحياةُ جميلةٌ! سيلوّن النهارُ من جديد طرقاً سوداءَ كانتْ تقبع في سجون الليل...

وعلى ذكر الليل، تبسمتْ وشخصتْ ببصرها إلى السماء لترى نجم الصباح يلملم نائماً آخرَ خيوط الضوء فيضعها في جيوب ردائه الأخضر الشاحب جداً.

ثم نظرتْ كاندوكا أسفلَ منها وتنهدت متنبهةً تماماً.

سمعتْ وقعَ أقدام تطرق بلاط الفناء فعرفت القادمَ. كان بيبي يَدخل المزرعة هكذا كلَ صباح ليحضر الحليبَ القويّ الأبيضَ اللذيذَ إلى المطبخ، فعلمتْ كاندوكا أنهم سيحضرون «له» كأساً وهو في سريره. أما «هو» فلمّا يستيقظْ بعدُ.

تخيلتْ كاندوكا المربيةَ ليوكاديا وهي تهزه ببطء وتُؤدة فيمسح بيديه - وعيناه نصفُ مفتوحَتين - على وجهه ليدرأ نوماً ويتثاءب راحةً، فتنقطع بطبيعية الحال سلسلةُ أحلام جميلة أتخمتْ دماغه النائم طوال الليلً، ثم ينسًاب الحليب ببطء بين تلك الشفتين الحمراوين، فيتمتم حين ينتهي: بخ بخ! ... رفرفةُ جناحين، وقفزةٌ فوق أحدً فروًعها جعلتاها تؤتي ثمارها؛ فقال لها صوتٌ دافئٌ وحميمٌ:

- صباح الخير يا كاندوكا. هل سارت ليلتكِ بشكل جيد؟»

- آه! السيدة راكيل، لولا أن مجموعة الخفافيش هذه تأتي فتفسد فاكهتي، إذن لكانتْ مقدسةً.

- حسناً؛ لم أستمتع بوقتي يا كاندوكا. تخيلي أن بي بحةً في الصوت وتعباً في الصدر... لا أشعر أني بخير أبداً؛ حتى أن الطبيب منعني من غناء القداسً، وطولِ الصيام، ووصف لي

ورق المانجو ... فهل لكِ أن تهبيني من فاكهتك بضع مكاييل؟

- بالتأكيد يا صديقتي. ماعدا تلك لأنها ... أنت تعلمين.

- نعم؛ أعرف. إنها له.

- بالفعل.

- ألمْ يستيقظ بعد؟

- بالكاد فتح نافذة غرفته. لا بدّ أنه تناول الحليب الآن. عما قريب سيتجه إلى غرفة الإفطار ... وسيكون أمامَه اليومُ بطوله للحكم.

- أنت تحبين الصبي حقاً، أليس كذلك؟

- كما لو كان ابني، سيدة راكيل. لقد رأيت الأميرَ يولد بقربي ويكبر بجواري... لقد أصبح بالفعل رجلاً صغيراً.

- حسنٌ كاندوكا، أستميحك عذراً، سأجرب بعض المانجو؛ فأنا في ضعف كبير.

قالت السّمّنةُ المغردةُ مقالتها تلك، ثم طارتَ عالياً نحو غصنٍ مرتفع.

× × ×

- إنه قادمٌ ... وهو يركض كعادته!

كاد قلب كاندوكا يتوقف في صدرها لفرط العاطفة؛ كما تكون حالُها كل صباح.

- كم هذا جميلٌ! ... إنه اليوم بهيٌّ الإشراق!

وصل الصبي راكضاً، وعلى محياهُ ابتسامةٌ دائمةٌ تشرق بها شفتاه الحمراوان اللتان بدتا تلتهمان الحياة والريح ... وركض أسرعَ فعانق بأذرع مفتوحة جذعَ شجرة المانجو الصغيرة.

- عَزيزي! صَاحتْ كاندوكا.

فضحكَ يقول:

- مرحباً سيدة كاندوكا... آه! لقد اشتقتُ لك سيدتي...

فتبسمتْ كاندوكا بسعادةٍ شاعرةً بذراعَي الصبي تحضن جذعها.

- سأصعد.

- هو لك. اصعد بحذر؛ وضعْ قدمك على هذا الفرع؛ والآن على ذاكَ الآخر. هات يدك الآن. حسناً، تعالَ اجلس هنا على هذا الغصين الثخين. هذا جيدٌ جداً.

مسح الصبي يديه بعدما جلس محاولاً مسحَ اللون الأحمر الذي أحدثه الجهد في كفيه.

وفجأةً، انتاب الأميرَ الصغيرَ حزنٌ عابرٌ.

- ها! إكسينتس! (كانت كاندوكا من سكان الشمال). أيُّ حزنٍ ذا؟

فقلقتْ.

- أرني يديك. هل تأذيتَ؟

- لا. لستُ لمثل هذا أحزنُ.

وانفجرتْ عينا الأمير دموعاً رقيقةً.

- لا يخفى عليك سيدة كاندوكا أني لم أعد أحتمل العيش بعدَ الآن!

- ولكن؛ ما الخطبُ يا عزيزي؟ فأنت لم تعرف الحياةَ بعدُ!

فضَحك ضحكةً ممتزجةً ببعض القلق؛ فبات بذا أكثرَ رقةً.

- ما بكَ؟ قلْ لي فأنتَ لا تُخفي عني أمراً. أضفْ إلى ذلك أننا أصدقاء، ألسنا كذلك؟

- اليومَ؛ في المقهى ...

وابتلع ريقَه الجافّ بعسرٍ.

- أمي وأبي ما زالا يتشاجران ... أبي سيعود إلى المدينة فاشتكتْ ماما من أن عليه التوقفَ عن لعب القمار ... وتحدثتْ عن الديون... وأشياءَ كثيرة لم أفهمها ... فقال إنه سيقامر في الكازينوهات أيضاً ... فنهضتْ باكيةً قاصدةً غرفتها. إنهم دائماً هكذا... وأنا ...

- لا بأس عليك يا بنيّ. مؤكدٌ أن هذا الحال سيتغير.

- لا، ليستْ ذي قضيتي. إنهما يتشاجران طوال الوقت، فتزداد الهوةُ بينهما والشرخُ يوماً بعد يوم ... وكم يحزنني هذا! لقد نسوني، ولولاكَ أنت والمربية ليوكاديا، ما كان لي في العَالم أَحدٌ.

- حسناً يا بني، لا بأس عليكَ. الكبار يتشاجرون دائماً ثم لا يلبثون يصطلحون.

- أما أنا فلا أريد أن أكبر؛ فإني إذا كبرتُ انتهى كل شيء.

- لا، بل ستكبر لتكون رجلاً صالحاً، شجاعاً، أميناً.

- كيف تعرفين أني سأكون ذلك؟

- كيف أعرفُ ذلك؟ أيُّ فتىً لا يسيء معاملة الحيوانات، ولا يصطاد الطيور، ويحسن معاملة الأشجار، ويروي القصص للأشجار، لا بدّ أنْ سيكون رجلاً شجاعاً نزيهاً. أ ليستْ ذي خصالَكَ؟

- هل أنا كذلك؟

- بل أنت ملاكي.

وابتسمتْ كاندوكا بحنانٍ، ونظرتْ للأعلى لتجدَ راكيل هناك.

- بمناسبة الحديث عن الطيور انظرْ من هناك. إنها سمّنةُ مغردةٌ تربطني بها صداقةٌ متينةٌ.

صوّب الأمير رأسه عالياً فداعب النسيمُ الذي ولد مبكراً وما زال في ريعان صباه شعرَ الصبي الأشقرَ الأجعدَ؛ فراحت الخيوطُ الذهبيةُ تتموّج كما لو أنها أوراقُ مانجو صغيرةٌ ذهبيةٌ أيضاً. رنتْ كاندوكا نحو الصبي بحنانٍ.

- كم هو وسيمٌ أميري هذا! فكرتْ.

نظر الصبي المتحمس إلى الطائر يأكل ثمار المانجو الناضجة؛ فتقطر على صدره المحمرّ قطراتٌ حمراءُ ...

سألتْ كاندوكا بفضول:

- أفلا تريد شيئاً منه؟

- بلى سيدتي؛ لكني شربتُ الحليب لتوي.

- إنه لا يضرّ. إنه اختراع الأقدمين.

- وإنْ كانت المربيةَ؟ ...

- إنها تغسل الأشياء في المخزن ... انظرْ!

سحبتْ كاندوكا كيساً ذهبياً فاتحاً للشهية من جيبها الورقي؛ فمدّ الأمير يديه الصغيرتين وقضم الفاكهة بأسنانه من فوره.

ثم قاطع نفسَه في منتصف القضم وقال:

- كما تعلمين سيدة كاندوكا، لقد اكتشفت شيئاً ما. لم أعد أريد أن أصبح قسيساً بعد الآن.

- فماذا تريد أن تكون الآن؟

- آه! شيئاً جميلاً! شيئاً رأيته في كتاب. أريد أن أكون مروّض حيواناتٍ في سيركٍ. لقد

كان الزي جميلاً؛ إذ كان يرتدي سترةً حمراء بشارات زرقاءَ فوق كتفيه؛ أما الصندوق فكان مليئاً بالأشياء الذهبية. كان يرتدي كذلك بنطالاً من المخمل الأسود، وحذاؤه المصقول جيداً يصل إلى ركبتيه.

- رباه! كم ستكونُ وسيماً.

- هل تظنين ذلك؟

- بالتأكيد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقد كانت واثقةً من ذلك؛ ففيه من الخصائل والمؤهلات ما فيه. كل شيء كان جميلاً، وقد تظاهرت بتصديقه. بالأمس قد أراد أن يكون كاهناً، واليوم مروضاً للحيوانات، فلعله غداً يفكر في أن يصبح حارساً ليلياً، لأنه أولَ أمس أراد أن يصبح مجنداً... إنها الطفولة، وعالَم الأحلام يتكشف كسحابةٍ جميلةً جداً تجوب أحلامَ السماء.

- كم عمرك الآن يا ولدي؟

- ثماني سنوات سيدة كاندوكا. لقد كبرت قليلاً، أليس كذلك؟

- لقد بتّ رجلاً تقريباً.

وضحكتْ في سرها؛ فحتى يصبح رجلاً، عليه أن يتناول الكثير من المانجو في حياته ...

نعم، فكرتْ كاندوكا. لكنه كان مخطئًا في نقطة واحدة هي أن عليه تناولَ الكثير من المانجًو فعلاً، لكن ليس ذا المانجو الذي كانت تنتجه بكثير من الحب ...

في اليوم التاليً، جاء سعياً، لكن عينيه كانتا هذه المرة مغرورقتين بالدموع؛ وتشبث بالجذع فلم يكد يُفقَه له قولٌ لضعف صوته.

فاعتصر قلبَ شجرة المانجو ألمٌ فراحتْ تخمّن ...

- حدّثني يا أميري، أخبر كاندوكا... ما الذي حدث؟

- هما ... مرةً أخرى ... أمي سترحل و ... سألتحقُ بالمدرسة.

- مستحيلٌ. لا يمكن لهذا أن يكون.

وراح الراتنج الصمغي الثخين ينساب من عيون المانجو الصغيرة.

- أنا ذاهبٌ. أقسم لك. سيتم اصطحابي بعد ظهر هذا اليوم رغماً عني، وأنا لا أريد ذلك... لا أريد مغادرة المزرعة، ولا تركك أنت والمربية.

لكن رغبةَ الأمير الصغير لم تكن بالأمر الذي قد يغير شيئاً أبداً. كادت كاندوكا أن تموت كمداً عندما ابتعدت السيارةُ تنزلق بصخب فوق الأرض الحجَرية المرصوفة، وعلى مَتنها الصبي الباكي.

رأته كاندوكا يلوح بيده، وبلغتْ كلماتُه الأخيرةُ مسامعَها:

- وداعاً... سيدة كاندوكا... وداعًا...

وهنا، جذبت الأمُّ الصبيّ إلى المقعد.

- أأنت مجنونٌ يا بنيّ ... أيّ كاندوكا ترى هناك؟ ...

فرق الصبيُّ أمّه بنظرات قاسية.

- لن تفهمي يا أمي. لنْ تفهمي.

وأطرق ببصره دون بكاء ولا شرح لأي شيء. كم هو محزنٌ (بدأ الآن يَفهم) أنْ يتعين على

الناس أن يكبروا فيفقدوا قلوبهم... كم هو مؤلمٌ ألا يستطيع الكبارُ مخاطبةَ الأشجار وفهمَها.

—

واصل الزمان أغنيته التي لا يمكن مقاطعتها ومضى.

كانت كاندوكا؛ نهايةَ كل عام؛ تنتظر بفارغ الصبر عودة الأمير، بل كانت فيً بعض الأحيان تُمنّي النفس بأوهام عودته خلال أشهر العطلة الثلاثة. لكن ذلك كان عبثاً! في مرات أخرى؛ كانت توقن تقريباً بأنه قد يعود للمزًرعة في عيد الميلاد؛ بيّد أن عيد الميلاد ضاع كحشو الكلام في منشور. ثم لم يعد. كانت السنواتُ والساعاتُ والدقائًقُ كحبال معقودةَ إلى حلقة واحدة... وكانت الوحدةُ تملأً أركانَ صًدر شجرةً المانجًو وتأخَذُ بيد قلبها للشيخوخة. بات جذعها جذعاً كثيرَ العَقد، وتناقصت ثمارها لا في الحجم فقط، بل في الكمّ أيضاً. مزّقتْ بقعُ ضوءِ الشمس ظلّ تلك التنورة الفسيحة

وارفة الظلال التي كانت كاندوكا تنشرها فوق بلاطَ الفناء؛ فتخلت الطيورُ عن اتخاذ أوراقها الباهتة اَلشاحبة مَكاناً لبناء أعشاشها. لقَد ضاع كَل شيء.

ليس ذا وحَسبُ؛ بل لقد عشّش الحزنُ والهجرانُ في كل ركن من أركان المزرعة.

جاء الشتاء ببرده، واَلصيف بحرّه، والربيع بزهره، والخريف بأوراقه الجافة؛ بيّد أنّ أيّاً من ذي المحطات لم تكن محطتَها، وذلك أنّ «الهجران الكبيرَ» قد نحرَ المحطات أيضاً.

لم يكن المديرُ المسؤولُ مهتماً لأَي شيء؛ وبذا ذبلتَ مزارعُ البن البائسةُ، ودفَنها غبارُ الطرق الأحمرُ المستمرُ. لقد كان غباراً كثيراً كما لو حُمل على صهوة ريح صرصر إلهية.

أتلف الشتاء سقيفةَ المزرعَة، وأدى إَلى تآكَل خشبها؛ فأورثتها الأمطارُ رطوبتها، وأتلفتْ بلاطها وعوارضها الخشبية، وراحتْ تثقبها بالتدريج فتنساب في شكل قطراتٍ راحتْ تزداد بمرور الساعات.

جفف الصيفُ الحقولُ وأحرق البركةَ فأتى على كل شيء فلم يكلف أحدٌ نفسَه عناء إصلاح ما فسد؛ فماتت الأسماك في البركة، وكانت طيورُ البلشون اَلبني والبط البري الصاخبة تأتي ليلاً لاصطياد النجوم المشمئزة من المياه.

وتوقف الخريف المتشرد عن التسكع في الممرات لكَنس عالم من الأوراق الصفراء الملتوية في شتَى أركانَ المزرعة؛ فظهرت مع الخريف القذارة والكآبة وعلقت في كل زاوية من الزوايا، ودمر الزمنُ حبل الجرس الذيً كان يدعو المستوطنين إلى العمل.

وراح المستوطنون يهاجرون تدريجياً؛ وهُدمت أسوارُ حلبات السباق ليُتاح لأي حيوانٍ أن يرعى ويعيش.

رباهُ! إنه الربيع الأكثرُ حزناً؛ وذلك أنّ المدرجات غُزيتْ، وابتُلعت جدرانُ منزل المزرعة اَلبيضاءُ عن بكرة أبيها. أما اللبلابَ فكان يواَصل تسلقه ليحيط بالأبواب والنوافذ

التي لم تعد تُفتح، فوارتُها الظلالُ والظلامُ الذي تفوح منه رائحة العفن والرطوبة. وعندما جاء الربيع، انفجرت الحدائقُ المغزوّةُ بأزهار برية قبيحة وخشنة. بل حتى الممرات الرمليةً بين أحجارً البلاطة لم تَسلم من غزو العشب والزهور القبيحة.

وراقبتْ كاندوكا بصمت هذا الانحطاط الذي باتتْ جزءاً منه؛ فكلّ شيء كان ينهار، ولكنّ شوقها للأمير لم يبارح أعماق قلبها. لا بدّ أنه بات الآن رجلاً؛ رجلاً بالغاً يحلق كل صباح، ولا بد أنّ عينيه الآن سوداوان تماماً، وربماً بات شعرُه الذهبيُّ أغمقَ؛ أو لعله يفكر بالزواج ربما. سمعتْ كاندوكا المديرَ وهو يتحدث إلى بيبي الذي ظل عالقاً في المزرعة يجلب الحليب كل صباح، فيجرُّ في ظله ألمَ مفاصله المرافق له كصَّديق حميم ... سمعتْ كاندوكا أنّ الأمير كان طبيباً تقريباً؛ فإنْ كان كذلك، فلماذا لا يفكر في الزواج؟

—

في كل مرة يظهر المدير في الفِناء حاملاً لبيبي أخباراً حزينةً.

—

- سيبيعون الغابة. ستمرّ السكة الحديدية وسطها.

—

- باعت السيدة الأشياء القديمة لمتجر التحف. مكتبة سُر مَن قرأ
- بيع حقلُ تربية الخيول لزارع من زارعي قصبَ السكر. سيكون هناك الآنَ حقلُ قصبٍ!

—

وشاهدتْ كاندوكا كيف تسقط الغابة وتهرب الطيور إلى ركن لمّا يزرْه الإنسان بعدُ، ولم يُعكر فيه صفو السلام.

وراحت المحاريث تئنُّ ليلاً ونهاراً فوق مضامير السباق والتدريب القديمة. ها هناك لن تلعب الخيول الذهبية أبداً.

ثم جاءتِ الشاحناتُ طلباً للتماثيل البيضاء

المصنوعة في بورتو؛ والتي تزين الحديقة الحزينة القبيحة المهجورة، والتي كانت نائمةً كشتلات فوق روابي المزرعة. ومع التماثيل، اختفتْ الشمعدانات الفضية والقديسون، وكل ما هوَ جميلٌ يخلّدُ التقاليدَ، ويذكرنا بعصر الاستعمار، وأحياءَ العبيد، والعبودية ذاتها. لقد اختفى كل شيء، وكان كل شيء يهاجرَ شيئًا فشيئًا، تاركاً مزرعةً جُرّدت من مَلابسها تماماً، ثم ماتتْ من الإهمال... باتت القاعاتُ الكبيرةُ خاويةً أو بها أثاثٌ بالٍ غدا مَرتعاً للديدان. حتى المدفأة راحتْ تُحتضَر من برد الشتاء. وحدها الجدران ظلتْ واقفةً، والفئران كانت تجري في كل مكانٍ وتصرخ مرددةً صدى الخفافيش...

—

لاح خريفٌ آخرُ متردداً، ورفرفتْ بلا ريح أوراقُ كاندوكا الصفراءُ القبيحةُ فوق لوحَ الفناء. لقد كانت ذي إملاءات القدر.

- ينبغي إزالةُ هذا الجذع الذَي يملأ الفِناءَ بالأوساخ!

فهبّ فأسٌ لا يرحم للقيام بهذا العمل الفذ بلا مبالاة.

تحولتْ كاندوكا إلى جذع يذرف بقايا صمغه، لكنّ الشمس كانت تُعافيها ببطء.

لكن كاندوكا كانت لا تزال على قيد الحياةً. نعم، لقد نجتْ بأنْ ستتغذى بقيةَ حياتها عبر جذورها الحية المبللة بالرطوبة.

كانتْ تعيش ليعود، وبعد أن يعود لن يكون لأي شيء آخر قيمةٌ. ولقد جاء ذلك اليوم وعاد الأميرُ فوقف في الفِناء وتحدث إلى المسؤول. كانت عيناه حزينتين، ولم يعد شعرُه القصيرُ يشبه تلك الضفائر الذهبية التي كانت تلوح ذاتَ يوم في مهب الريح. كانت لحيته قد أكسبتْ وجْهَه مسحةً زرقاء، أم أن الأمير لضعف بصره كان مرتبكاً؟ لعله كذلك. لن يتغير الأمير هكذا. لا؛ لن يكون شخصاً أخرَ مختلفاً تماماً عمّن كانتْ تحلم به في وحدتها... لكنه كان هو؛ وقد بات

صوته كئيباً حزيناً. رأى ما آلتْ إليه حالُ المزرعة. مؤكدٌ... حسنٌ، فيمَ يجدي التعليقُ؟

هل سيتذكرها؟ مؤكدٌ أنه سيَذكرها. سأل الأمير فسمعتْ. أوه! نعم؛ سمعتْه. لقد سأل عن مكان دفن المربية ليوكاديا فأجابه المسؤول إنه سيأخذه إلى مدفنها.

بدا أن كاندوكا قد بُعثتْ من جديد لما سمعت من مقالته إذ تذكرتْ ما قاله لها يوماً: «لولاك أنت والمربية ليوكاديا، لما كان لي من أحد فَي هذا العالم...»

وراح الأمير بعدها يتفقد محيط الفناء؛ فتوقفتْ عيناه أمام نافذة غرفة طفولته، والتي باتتْ مغلقةً ومنسية الآن.

ثم أطرق ببصره محاولاً نسيان كل شيء فوجد أربطةَ حذائه مفككةً؛ فمشى نحو جذعٍ كاندوكا، وأسند قدميه إليها، وقام بتعديل الأربطة واحدةً تلو الأخرى.

ثم قفل عائداً إلى المسؤول.

- شيءٌ ما مفقودٌ ها هنا...

ضحك المسؤول وعلق وهو يلف سجائر بين أصابعه:

- ما تقفده كان في الموضع الذي ربطت حذاءك فيه.

حدق الأمير في الجذع، كما لو أنه لا يعني شيئاً.

- أوه! تذكرتُ. كانت هنالك شجرةٌ ...

شعرتْ كاندوكا أنها لم تعد على قيود الوجود، فراحتْ تتكمش داخل جذورها، وأغلقتْ عينيها مرةً واحدةً وإلى الأبد لكي تفتحهما في عالم «العدم».

—

ومرت سنواتٌ عديدةٌ، وتزوج الأمير وله الآن ابنٌ بلغ ربيعَه الرابعَ. كان فتىً وسيماً بشعر أجعدَ وفم أحمرَ نصفِ مفتوحٍ يلتهم به الريحَ والحياةَ.

كانوا ذات ليلة يتناولون العشاء، فعقّب الأمير على كلام زوجته معلقاً على كلام سبق أن تحدثوا فيه بالتأكيد، فقال:

- لم يبق لي مما ملكتْ سوى هذه: ثلاثمائة كونتو؛ لي نصفها ولأختي سيليا نصفها الآخر؛ فقد احترقت مطحنة أبي، وضاعت مزرعة أمي، وكذا ممتلكاتهما في البلدة ... كل ذلك في سبيل رذيلة بائسة ... لرذيلة بائسة ترك لنا ثلاثمئة كونتو إرثاً سوغ نقتسمه.

لم تجب المرأة؛ فأكمل:

- سنسدد دفعةً أولى ونشتري شقةً با لتقسيط .

توسلت الزوجة، ولم تكن ذا توسلها الأول:

- لا عزيزي. سنشتَري منزلاً صغيراً. منزلاً صغيراً بحديقة، فلا يكون حتى في الضواحي؛ منزلاً به شجرةٌ؛ فابننا صبيٌّ، وجميع الصّبية يحبون الأشجار، ويروون لها القصص.

لكنها لم تستطع إنهاء كلامها، لأن الأمير قاطعها:

- لا تلحّي يا عزيزي. الشقة عمليةٌ أكثرَ

من المنزل؛ ثم ها أنا ذا كنت صبياً ذات يوم فلم يكن لدي أيٌّ مما تقولينه. إنها محضُ قصص أدبية.

هنالَك، كانَ قلب الليل حزيناً...

—

هنالك، قلبٌ من الزجاج الملون! ...

(فرناندو بيسوا)

أدب

قلبٌ من زجاجٍ

بقلم لويس أنطونيو أغيار

كاتبٌ ومترجمٌ حاز على درجة الماجستير في الأدب البرازيلي وعلى جائزتَي جابوتي.

ما هو الكلُّ إن لم نفكر في الكل؟
هنالك، قلبٌ من زجاج ملونٍ!
فرناندو بيسوا[1]
لكن الناس دمروا كل شيء ...
(صفحة 11)

إنّ الحكايات؛ تلك القصصُ التي تصور الحيوانات ومخلوقات الطبيعة الأخرى - كالأشجار على سبيل المثال - هي قصصٌ تنبض بالحياة والمشاعر والذكريات... وذلك لتتحدث عن «واقعنا» كشخص يراقبه من الخارج فيخمن ما لا يمكنك رؤيته.

وإنها لا ترى بالضرورة أنّ الإنسانَ أَعجبُ العجائب...

يجمع (قلبٌ من زجاج) بين أربع من هذه القصص السحرية التيَ تُنسب لكَاتب يرى في الفانتازيا والخيالِ كل شيءٍ؛ فهما مَنظورُه

١ - في فرناندو بيسوا - عملٌ شعريّ. ريو دي جانيرو: آغيار، ١٩٨٣، ص.٣٢٤.

الذي يرى من خلاله عالمه وأدبه.

«كان فيما كان... كانت هنالك مزرعةٌ فسيحةٌ . »

كانت هناك غابةٌ تغرد فيها الطيور بحرية، وكان أحدها يحلم أكثر من غيره بأن يفوق جمالُ غنائه كلّ ما يحيط به من جمال.

كانت هناك بحيرةٌ مليئةٌ بالأسماك الذهبية؛ فتراءى لأحدها أنه أجمل الأسماك السابحة هناك.

كانت هناك أيضاً مزرعةٌ لخيول سباق برز منها مهرٌ فغدا قوياً سريعاً، فاستحق أنْ يطلقوا عليه اسم «الحصان الذهبي».

وكان من بين العديد من الأشجار، شجرةُ مانجو صغيرةٌ؛ وكانتْ ذروةُ سنام حبّها الأميرَ الذي شهدتْ ولادتَه ونموّه. حَين وَلد الأمير، كاد قلبُ شجرة المانجو - واسمها كاندوكا... نعم، كان لها قلبٌ! - يتوقف لفرط ما تحمستْ. ثم تكلما، وحدثها الأميرُ ببعض أحزانه فشدّتْ من أزره وقوّتْ من عزيمته

بعاطفتها. تزعم هذه القصة أن الأطفال وحدهم يستطيعون التحدث إلى الأشجار وفهم لغتها.

كانت السيدة كاندوكا شجرةً تعيش في الفناء الخلفي للمزرعة.

شابةً مليئةً بالأحلام، مبتهجةً تفيض بالحنان، ولطالما كانت ترتدي تاجَها الأخضر اللامع، لتستنير بنور الشمس، وتستضيءَ خيوط القمر الفضية.

(صفحة 50)

وها هو ذا كل شعر خوسيه ماورو ... في نصّ نثريّ غنيّ بجُمل تهمس بأسرار؛ فكأنما هيَ صورٌ نادرةٌ شكلتَّها الكلماتُ.

كذلك كان عالمُ (قلبٌ من زجاج)؛ فردوسًا تولد فيه الخرافاتُ، ويكون السحرُ فيها مألوفاً أُلفةَ أيّ شيءٍ ينبجس من الأرض، أو يتنفس في المَاء أو يحوم في السماء.

لكنّ «الإنسان» بعد ذلك يأتي فيدمر كل شيءٍ. وحده «الإنسان» ذو القلب الزجاجي

يمثل أشياءَ كثيرةً؛ فهو الطفل الذي يكبر ليصبح بالغاً، وهو التجرد من الإحساس الذي يحتاجه العالم حينما يكبر. إنه انفصالُ المتحابين، ونسيانُ الحب، والرغبةُ العضالُ، وهو الوحدةُ... التي لا تبتلع الأحلام وحسبُ... بل وتسلب إرادة الحياة أصلاً.

أحياناً؛ يكون الجشع القديم للربح هو يجعله يقطع الغابات، ويسجن الطيور والأسماك، ويهمل حتى أكثر الحيوانات حظوةً وتقديراً إنْ لم يكن أن يجني منها شيئاً.

يعود تاريخُ «قلبٌ من زجاج» إلى عام 1964؛ وذلك في زمن لم يشعّ فيه الحديثُ عن تدمير التوازن البيئيّ للكوكب؛ ومع ذلك، نرى الكتابَ - كما لو كان يتنبأ بما هو آت - يحوّل العلاقةَ بين البشر والطبيعة - ومِن ذلك الحفاظُ على البيئة أيضاً - إلى قصص حبّ وخسارة بأسلوب بسيط ومؤثر في ذات الوقت. ومرّتْ بعد ذلك سنواتٌ عديدةٌ، فأتتْ ذي الخرافات هنا لتجعلنا نؤمن أن لإهمال هذا السحر

علاقةً بالمخاطر التي تهدد وجود الأرض.

هل الطبيعة كائنٌ حيٌّ؟ هل للحيوانات مشاعرُ؟

أصحيحٌ أنّ كل طفلٍ يستطيع التحدث إلى الأشجار؟

وأن كل بالغ يصبحُ عاجزاً عن تذكر ذلك؟

وأنّ الحقّ مَا يقوله كلُّ بالغ من أنه لا يؤمن بمثل هذه الأشياء الطفولية، «لقد حزن قلبُ الليل»؛ وأنَّ خرافات القلب الزجاجي... هي طريقةٌ خاصةٌ (طفوَليةٌ؟) تُساق للتفكير في كل ما هو موجودٌ؛ سواءً كان فينا أم كان حولنا.

لويز أنطونيو أغيار

وُلد خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في 26 فبراير 1920 في بانغو، ريو دي جانيرو لأسرة فقيرة معدمة، فعاش صباه مع أعمامه في ناتّال، عاصمة ريو غراندي دو نورتي، وهناك أمضى طفولته وشبابه. تدرب الصبي في ربيعه التاسع على السباحة في مياه نهر بوتنجي في ذات المدينة، وكان حلمه أن يصبح بطلاً. أحبّ القراءة أيضاً، فعشق بشكل خاصّ روايات باولو سيتوبال، وغراسيليانو رامّوس، وخوسيه لينس دو ريغو، وهذان الكاتبان الإقليميان هما من رواد الأدب البرازيلي.

كانت أنشطةُ طفولة خوسيه ماورو بمثابة حجر الزاوية في حياته برُمتها: من روح المغامرة والأنشطة البدنية، إلى الأدب والكتابة في الوقت نفسه، وكذا السينما والفنون الجميلة والمسرح وصولاً إلى الحساسية والحيوية البدنية؛ لكن بدون أكاديمية الآداب والحياة الاجتماعية اللاتي تخضعان للقواعد

وألعاب الكواليس. ويصبح خوسيه ماورو رجلاً لامعاً. نعم؛ ولكن بسيطاً جداً.

التحق حين كان في ناتال بكلية الطب مدة عامين، لكنه لم يستطع المقاومة: إذ دفعته شخصيته المضطربة إلى العودة إلى ريو دي جانيرو مرتحلاً على متن سفينة شحن، وليس معه من متاع الدنيا سوى حقيبة بسيطة من الورق المقوى. من ريو دي جانيرو بدأ رحلة حج طاف فيها جميعَ أنحاء البرازيل: كان مدرباً ملاكمة وناقلاً للموز في العاصمة كاريوكا، وصياداً على ساحل ريو دي جانيرو، ومعلماً في مدرسة ابتدائية في مركز صيد في ريسيفي، ونادلاً في ساو باولو...

أفضتْ به تجربتُه ذي وذاكرتُه وخيالُه المتميزان، وتَمكنُه الميسرُ من سرد القصص، إلى إثراء الأدب بأعمال أدبية ذات جودة معترف بها دولياً: 22 كتاباً تشمل الروايات والقصص القصيرة، وبترجمات منشورة في أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية

واليابان، بل لقد حازت بعض كتبه على نسخ سينمائية ومسرحية.

كانت أُولاها حين بلَغ ربيعَه الثاني والعشرين، من خلال رواية «الموزة الشجاعة» (1942)، والتي تصور الرجل البليد في مناجم غوياز سيرتو، في الغرب الأوسط من البرازيل. على الرغم من بعض المقالات الإيجابية التي كُتبتْ عن الرواية، إلا أنها لم تحقق النجاح، ثم جاءتْ رواية «الطين الأبيض» (1945)، والتي جاءت خلَفاً لكلّ من «مسطحات ملح ماكاو»، و «نهر الشمالِّ الكبير»؛ إلى أن بلغ المؤلفُ الشريانَ الإقليمي مع «الببغاء الأحمر» (1953)، و «طحينٌ يتيمٌ» (1970) و «مطرٌ استوائيٌّ» (1972).

كان منهاجُ عمله يتسم بخصوصية فريدة؛ فقد اختار مواقع سيناريوهات حكاياته ثمَّ انتقَل إليها؛ فقبل كتابة «الببغاء الأحمر»، سافر حوالي ثلاثة آلاف ميل عبر باكلاند، وأجرى منها دراساتٍ مكثفةً استندتْ عليها

الرواية.

قال للصحفيين: «أكتب كتبي في غضون أيام قليلة؛ لكني في المقابل، أمضي سنوات فيَّ اجترارَ الأفكار؛ فأنا أكتب كل شيء على الآلة الكاتبة، فأقوم بإنجاز فصل كاملٍ، ثم أعيد قراءة ما كتبته. إني أكتب فيَّ أي وقت، ليلاً أو نهاراً؛ فإذا ما بدأتُ بالكتابة بلغتُ النشوةَ فلا أتوقف عن الضغط على مفاتيح الجهاز حتى تؤلمني أصابعي.»

إنّ تأثرَ حياته الهائلَ بالعيش مع الشعوب الأصلية (إذ اعتاد الذهاب إلى «وسط الأدغال» مرةً واحدةً في السنة على الأقل) قد ظهر لاحقاً في أعماله؛ ففي عام 1949، نشر كتابه «بعيداً عن الأرض»، فسرد فيه تجربته وسلط الضوء على الضرر الذي لحق بالثقافة المحلية بسبب الاتصال بالأشخاص البيض. كان هذا الكتابُ أولَ كتابٍ من قائمةٍ واسعةٍ من الكتب الأصلية:

Arraia de Fogo (1955)
Rosinha, Minha Canoa (1962)
O Garanhão das Praias (1964)
As Confissões de Frei Abóbora (1966)
Kuryala: Capitão e Carajá (1979)

تمخض هذا الإنتاج عن مجهود كبير بذله الشابُّ خوسيه ماورو مع إخوانه البرازيليين في فيلاس-بو، والسيرتيين والسكان الأصليين للمناطق النائية في منطقة أراغوايا في الغرب الأوسط من البلاد. قاد الإخوان فيلاس بوا: أورلاندو وكلوديو وليوناردو؛ رحلةَ رونكادور-شينغو التي بدأت في عام 1943، فربطت الداخلَ البرازيليَّ بسواحل البرازيل فاحتكوا بشعوب أصلية غير معروفة ورسموا خرائطَ أراضيهم، وشقّوا طَرقاً إلى وسط البرازيل.

كان النجاحُ العظيمُ الأولُ من نصيب كتاب «زورقي الوردي الصغير» الذي يقابل فيه ثقافةَ

البدائيين بالثقافة المفترسة الفاسدة للبيض المتحضرين، لكن العمل الذي سيحقق قدراً أكبر من الاعتراف العامّ سيأتي بعد ست سنوات تحت عنوان «برتقالَتي الرائعة»؛ وفيها يروي الكتاب قصةَ طفل فقير غير مفهوم يفر من العالم الحقيقي إلى شعابً الخيَال؛ فجَذبت الروايةُ القراءَ البرازيليينَ من أقصى الشمالَ إلى الجنوب محطمةً جميع أرقام المبيعات القياسية. قال الكاتب في ذلك الوقت: «لديّ جمهور تتراوح أعمارهم من 6 إلى 93 عاماً. لا هنا في ريو دي جانيرو أو ساو باولو وحسبُ، بل في جميع أنحاء البرازيل؛ كما أن كتابي «زورقي الوردي الصغير» يُستخدم في دورة اللغة البرتغالية في جامعة السوربون في باريس».

ومن أكثر ما أثار إعجاب النقاد هو أن «برتقالتي الرائعة» كُتبت في 12 يوماً فقط. قال خوسيه ماورو: «لكنها ظلتْ في صدري سنواتٍ عشرينَ؛ وحين تُنسج في مخيلتي كلّ

خيوط القصة، أبدأ بالكتابة؛ فأنا لا أكتب حتى أشعر بالسرد الروائي يُفرز من شتى مسام جلدي، فترى كلَّ شيء ينسكب سريعاً.»

بيع من «برتقالتي الرائعة» أكثرُ من مليوني نسخة، وتضاعفت الترجمات: ونُشرتْ «الطين الأبيضُ» في المجر والنمسا والأرجنتين وألمانيا؛ كما نُشر «الببغاء الأحمر» في ألمانيا والنمسا وسويسرا والأرجنتين وهولندا والنرويج؛ وقد تم نشر «برتقالتي الرائعة» في حوالي خمسة عشر دولةً ...

«دعونا ندفئ الشمس» (1972)، و «مجنون» (1963) هما عنوانان شكلا مع «برتقالتي الرائعة» سيرةَ خوسيه مورو الذاتية على الرغم من أن المؤلف بدأ الثلاثية بقصة مراهقته وشبابه في «مجنون». «بعيداً عن الأرض» و «اعترافات الراهب يقطينة» تحتوي أيضاً على عناصر تشير إلى حياة المؤلف. كما تتضمن قائمة أعمال خوسيه ماورو أيضاً كتباً تركز على الأعمال الدرامية الوجودية: «الجزّر»

(1951)، و «طريق حاف» (1969)؛ و «الوجبة» (1975) وغيرُها كانتْ موجهةً لجمهور أحدث سناً؛ ومنها ما يتعامل مع القضايا الإنسانية: «قلبٌ من زجاج» (1964)، و «القصر الياباني» (1969)، و «المراكب الشراعية الكريستالية» (1973)، و «الفتى الخفي» (1978).

إلى جانب إريكو فيريسيمو من ريو غراندي دو سول، وخورخي أمادو من باهيا، كان خوسيه ماورو أحد الكتاب البرازيليين القلائل الذين يمكنهم العيش من مجرد حقوق النشر؛ ومع ذلك، فإن موهبته لم تتألق في الأدب وحده.

فبالإضافة إلى كونه كاتباً، فقد عمل صحفياً ومذيعاً ورساماً وعارض أزياء وممثلاً؛ ونظراً للياقته البدنية الجميلة، فقد لعب دور المعبود في العديد من الأفلام والمسلسلات؛ فحصل على جوائز عن أدائه في «نموذج المحفظة 19»، و «الجزيرة والمرأة والملايين»؛ كما كان بمثابة نموذج لـ «نُصب الشباب» المنحوت في حديقة وزارة التعليم السابقة في ريو دي

جانيرو عام 1941، للنحات برونو جيورجي (1905-1993)، وهو نحاتٌ برازيليٌّ مشهورٌ عالمياً.

لم ينجح خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في مجال وحيد: إنه المجال الأكاديمي. في أربعينات القرن العشرين، حصل على منحة دراسية من إسبانيا، لكنه قرر بعد أسبوعٍ أن يتخلّى عن الحياة الجامعية والسفر إلىً أوروبا؛ فقد كان صوتُ روحه المغامرة أعلى.

يعود نجاح المؤلف بشكل أساسيّ إلى سهولة تواصله مع قرائه، وقد أوضح خوَسيه ماورو ذلك بقوله: «لعل ما يجذب جمهوري لي هو بساطتي. أعتقدُ أنها البساطة؛ فشخصياتي تتحدث اللغةَ الإقليميةَ؛ لغةَ أناس بسطاءَ مثلي، وأنا كما أسلفتُ، لا أبدو ككاتبٍ على الإطلاق؛ فشخصيتي تظهر في أدبي مصَورةً ذاتي.»

توفي خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في 24 يوليو 1984 عن عمر ناهز 64 عاماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

الحكايات قصصٌ تحكي "و اقعَنا" على ألسنة الحيو انات والمخلوقات الأخرى بعد أن تُنفخ فيها الروح ويُخلع عليها رداءُ المشاعر والذكريات ...

يجمع "قلبٌ من زجاجٍ" بين أربع حكاياتٍ من ذا النمط القصصي الساحر لكاتبٍ يرى في الفانتازيا والخيال كل شيءٍ؛ فهما زاويته ونافذته التي يطل منهما على العالم وأدبه: حكاياتٍ تتشابك خيوطها تاليةً صعودَ و انحدار مزرعةٍ فسيحةٍ.

فيها أربعُ شخصياتٍ دمرها الغرور والغباء وكبرياء الإنسان: العصفور الأزرق، والسمكة الحمراء الصغيرة، والحصان الذهبي، وشجرة المانجو الصغيرة.

يعود تاريخ العمل إلى عام 1964؛ وذلك في زمنٍ لم يشهدِ الكثير من الحديث عن تدمير التوازن البيئي للكوكب؛ غير أن الكتاب، كما لو كان يتنبأ بما هو آتٍ، يحول العلاقة بين البشر والطبيعة - والحفاظ على البيئة - إلى قصصٍ بسيطةٍ ومؤثرةٍ معاً عن الحب والخسارة. ومرتْ سنواتٌ عدةٌ على وجود هذه الحكايات بين أيدينا لتجعلنا نفكر في أن للتخليَ عن هذا السحر علاقةً بالمخاطر التي تهدد بقاء الأرض.

إنّ حكاياتِ "قلبٌ من زجاجٍ" ... هي أسلوبُ تفكرٍ فريدٌ فيما هو فينا وما هو حولنا؛ بل في الوجود ككلّ.

وُلد خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس في 26 فبراير عام 1920 في بانغو، ريو دي جانيرو، فكان زي ماورو واحداً من أحد عشر طفلاً وُلدوا لعائلةٍ فقيرةٍ جداً؛ فأمضى طفولته في كنف أعمامه في ناتال، وتعلم القراءة بنفسه، وفاز في ربيعه التاسع ببطولات السباحة وكرة القدم.

وبفضل روحه التي لا تكلّ، حاول أن يتّبع عدة دوراتٍ: فأنفق في الطب سنتين، وبدأ بمزاولة الرسم والقانون والفلسفة. لقد كانت حياته حياةً جافاها الفراغُ إذ عمل صياداً ومعلماً وعارضَ أزياءٍ ور اقصاً ونادلاً وممثلاً في السينما والمسرح والتلفزيون؛ كما سافر في جميع أنحاء أوروبا والبرازيل برفقة الإخوة فيلاس بوا. من تجاربه التي تُعد فلا تحصى، وقدرته السرديةِ الر ائعةِ استوحى زي ماورو العديدَ من شخصياته وبيئاتِ أعماله؛ وقال فيما قال بأن "أصعبَ الفنونِ الأدبُ، وذلك أن على الكلمة أن تصور كلّ شيءٍ: من الألوان وفروق الرسم الدقيقة، إلى الصوت و انسجام الموسيقى، فالحركة. الكتابة هي السبيل الذي استطعتُ به نقل تجاربي، خيرها وشرّها، ونقلَ الشعور الذي نُسي منذ زمنٍ طويلٍ: إنه الحنان: فلا معنى للحياة بلا حنانٍ". توفي الكاتب في ساو باولو، في 24 يوليو من عام 1984.

www.darmolhimon.com

ISBN 978-9948-37-684-2

9 789948 376842

ملهمون للنشر والتوزيع MOLHIMON